مريم شمص

حافية بين عمرين

رواية



حافية بين عمرين

مريم شمص

حافية بين عمرين

(روايـــة)

دار الفارابي

الكتاب: حافية بين عمرين

المؤلف: مريم شمص

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)

ص.ب: ٣١٨١ / ١١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: أيار ٢٠١٥

ISBN: 978-614-432-354-0

إن الأسماء والشخصيات الواردة في هذه الرواية هي متخيّلة، وأي تشابه مع الواقع يكون محض صدفة ليس إلّا...

مريم شمص

الإهداء

ها أنا أسترجع حقّكَ في حياةٍ لم تعشها، في حلمٍ لم يتسنَّ لك الكتابة عنه، في كلماتٍ لم تقلها وفي أنفاسٍ لم تكملها..

أبي..
ها أنا كما وعدتُكَ، «أحيا» عنّي وعنك
أستمتع الضِّعْفَ عن كل ما كان سيمتعنا معاً لو بقيت..
أستمتع عنّي وعنك....
برائحة الأرض بعد الشتوة الأولى كلّ عام..
بوشوشة نسمات الصبح العذراء في أُذُن الكون كل شروق..
برنين خلاخل جاريات الليل السمراوات تهرهر عباءاتهنّ المطرّزة نجوماً برّاقةً على جسد السماء كل غروب..
بدندنة المارد الأزرق لحبيبته الشمس الدائخة نعاساً بين أحضانه..

بطعم أوّل تفاحةٍ خضراءَ أوّل كلّ خريف.

برائحة الكتب في حقائب التلاميذ الجديدة كل أيلول..

بلمسة أصابع كل مولودٍ جديدٍ أراه..

بعشرة الناس ذوي النفوس الجميلة..

بالحب.. بالصداقة.. بالجمال.. بالحريّة.. بالأمومة.. بـــالأدب.. بالضحك.. بالكلمات.. بالحزن الأنيق.. بالذكريات..

أبي..

قلت لي ذات طفولةٍ صارت سحيقةً: إقرئي، ولن يمسّ الملل روحك أبداً.. اكتبي، ولن تحتاجي يوماً للبكاء على كتف أحد فقرأت كثيراً.. وكتبت كثيراً.. وأيضاً.. عنّي وعنك..

وسأظلّ أكتب، سنظلّ نكتب معاً.. حتى نلتقي..

هنا صيدا القديمة....

صوت طرق متواصل يأتي من الخارج، خلفيته الموسيقية أزيز منشار كهربائي لا يتوقف عن العمل في المنشرة القديمة الملتصقة بحائط المنزل. مزيجٌ من أصوات بشرية تشارك في المشهد السمعي اليومي المتكرر: رجلٌ آت من مكان غير معروف ينادي: يللي عندو ألمنيوم للبيع... نحاس قصدير للبيع...

بائع خضار متجول يجر عربة خشبية متهالكة ستصبح فور دخولها الحارة نجمة المشهد الصباحي، إذ ستترك كل النسوة فناجين قهوتهن وثرثراتهن المبعثرة بين رماد السجائر ليتسابقن في اقتناص أفضل ضمة بقدونس لتبولة الغداء أو أرشق قرن لوبياء للطبخة اليومية.

صوت المطر الخريفي الخجول يدق باستحياء سطوح

الأترنيت التي رفعت فوق بعض الأزقة الصلعاء لحماية المارين من استحمام إلزامي.... وفوق كل هذه الأصوات، صوت عريض يحجب كل ذاك الضجيج: صوت الغسالة التقليدية الضخمة ذات الحوضين، تهدر حيناً بصوت جهوري وقح، وتئن حيناً آخر كامرأة حين مخاضها...

وأمي، بكامل نشاطها، تنقل الثياب من حوض الغسيل إلى حوض التجفيف، وتضع الملابس الداخلية البيضاء والمناشف في وعاء معدني ضخم فوق الغاز المتهالك، مع قرص «النيلة» الأزرق لزيادة البياض الناصع...

وأنا..غارقة في بحر من الأصوات والروائح والمشاعر، متمددة على الكنبة العريضة ذات النقوش الكحلية، مأخوذة كلياً بقبلة سينمائية طويلة يتبادلها رشدي أباظة وماجدة الصباحي تحت مطر غزير في فيلم «المراهقات» الشهير... وكل حواسي مركزة بين ذراعيه القويتين يعصر بهما ثوبها البيتي الخفيف، أكاد أشعر بحرارة القبلة على شفتي، ويكاد لهيب الحب المتصاعد من عناقهما يحرق قلبي.

أمي تناديني، أسمع صوتها ولا أسمعه، كأنه يأتي من مكان سحيق يختلط فيه هدير الغسالة العجوز التي تزأر لبلوغ نشوتها

بالتنظيف، بأصوات أطفال يلعبون خارجاً بين الأزقة، بضجيج أحلامي الرومنسية التي أججها صوت رشدي أباظة يهطل شغفاً ووعوداً بحب لا يموت.... لأتنبه من شرودي على ألم يغزو كتفي اليسرى، ألمٌ سببه فردة من حذاء أمي البلاستيكي المضاد للتزحلق، أصابتني ضربة مباشرة محكمة التسديد من يدها المبتلة يتبعها صراخٌ هستيريٌّ: هل سمعتني الآن؟ قومي انشري الغسيل ليجف، أم تظنين نفسك ماجدة وستتزوجين رشدي أباظة يا ابنة بطني؟!

أخفف السرعة تدريجاً وأنا أحاول التوقف تماماً في أقصى يمين الشارع الخالي تقريباً.. أحتاج أن أضحك، أن أضحك حتى البكاء... أن أضحك ملء حزني، ملء مللي، وملء دموعي... لماذا يخترق وحدتي دائماً هذا المشهد؟! أو بالمعنى الأصح لماذا أنا أخترق حرمة سكونه الأبدي في قبر الماضي الذي مهما حاولت، أبداً لن أعود؟!

هي ليست صيدا القديمة إذاً هنا.....

هي ليست الطفولة البعيدة بأصواتها الحميمة وروائحها الدافئة.....

هنا.... ليست الحارة... ولا سقوف الأترنيت.... ولا عربة الخضار المتجولة... ولا الغسالة العجوز ذات الحوضين... ولا صراخ الأطفال في الأزقة... ولا استرخاء مراهقة أمام شاشة سحرية....

هنا ليست أنا الطفلة..... ولا أنا المراهقة....

هنا أنا الجديدة...

هنا الرملة البيضاء...

«يا سنيني اللي رحتي ارجعيلي

ارجعيلي شي مرة ارجعيلي»

إصبعي تضغط بجنون على زر الـ volume، الصوت يعلو حتى يكاد ينقطع نفسه وإصبعي لا تزال تضغط...

كأنها تستجدي هذا الزر أن يستجيب لها إلى ما لانهاية....

كأنها تستجدي هذا الصوت أن يغرقني، أن يجرفني في أمواجه حتى أختنق بزبده وأضيع...

الضياع... هذا ما كنت فعلاً أستجديه... الضياع كخلاص،

كمفر من ضياع أفظع وأعمق، ضياعي عن نفسي التي أفتقدها وعن روحي التي أعذبها بالأقنعة...

يدي الأخرى تشد على مقود السيارة كأنها تخنقه.. وقدمي تدوس بعنف يجعل السيارة تبتلع الطريق أمامها بشرهٍ خطر..

هذه السيارة كم أكرهها!! سيارتي؟ ومن أين لي أن أقول هذه الكلمة؟ وهل يجوز لي أصلاً أن أستعمل هذه «الياء» في نهاية أي كلمة من كلماتي؟ ياء الملكية هذه لا تليق بي، أنا التي لا أملك شيئاً، أنا التي لا أملك حتى نفسي.

صوت فيروز يطغى على كل ما حولي، السماء والهواء والأرض... حتى غبار الطريق يشارك في طقوس الخضوع لسطوته... كأن الكون راح في غيبوبة، أنا لا أسمع هذا الصوت فقط، أنا أتنفسه، أتنفسه بأذني وعيني ويدي وقلبي...

«وأنسيني عباب الطفولة

تا أركض بشمس الطرقات».

آه يا طفولتي التي لا تزال تختبىء في كل خلية من كياني.... يا طرقات عمرٍ مضى كانت مشرعةً على السماء والهواء، خضراء معشوشبة كزغب أشقر على جبين طفل حديث الولادة...

ثلاثون سنة: هي كل عمري... قليلة هذه الثلاثون من عمر الزمن وكثيرة جداً على من أضاع أحلامه...

ثلاثون... هي في العادة مرحلة بداية الاستقرار في عمر الإنسان، وبالنسبة إلي هي بداية البحث عن النهاية... نهاية لائقة لحياة لم تكن على قدر أمل البدايات الحالمة...

كيف بلغت الثلاثين؟ ومتى كبرت إلى هذه الدرجة؟ هل تملكتني الشيزوفرينيا العاطفية لدرجة أني أمسيتُ ابنة سبعة عشر عاماً ولكن ذات جسد وظروف ابنة الثلاثين؟

ثمانية أعياد ميلاد احتفلت بها تحت ثريات متلألئة وباقات شاهقة، ولاأزالُ أدمع جوعاً كلما تذكرت قالب الكيك الإسفنجي الذهبي المشع دون أي زينة، تضيئه ابتسامة أمي فرحاً باحتفائي به... ومايزال قلبي يخفق شوقاً إلى هدايا صديقات الأمس المنتقاة بكل حب من محالّ السوق الرخيصة....

تدور الذكريات حولي كنساء فقدن عقولهن.. ذكرياتٌ مجنونةٌ ذات شعور طويلة وأظفار مسننة... ذكرياتٌ ذات كعوب عالية تدوس أطراف أعصابي، تدور حولي وفيّ، فتدور الدنيا بي... يلفني الضياع، متسلحاً بقوة التخدير في صوت فيروز... صوتها يغلفني كشرنقة... رجلي تضغط وتضغط دواسة البنزين كأني أريد

لهذه الآلة الخرساء أن تطير.. ولكن إلى أين أذهب؟ وأين تستطيع هذه اليد أن تقودني... وهذا الطوق الماسي يخنق عنق بنصرها الأيسر؟

تحرري أيتها اليد كي تستطيعي أن تقرري... تحرري كي تستطيعي أن تقودي... تحرري وحرريني معك....

أخلع الطوق الماسي بهدوء... أنظر إليه طويلاً معتذرةً عن خيانتي لعشرتنا الطويلة... هو ظل صديقاً وفياً لإصبعي سنين عديدةً، فلا شك أنه يعرف إذاً سبب استغنائي عنه... مؤكدٌ أنه اختزن في ذاكرته الذهبية خيباتي ومشاعري وطعم دموعي التي شهد عليها... يُمتعني لمعانه القوي في الفضاء الأسود حيث رميته وهو يتشقلب ويدور حول نفسه كنجمٍ بصقته سماؤه عنوةً، قبل أن يتلقفه إسفلت الشارع جثةً ناطقةً سيعتبرها من يجدها نعمةً مفاجئةً وهديةً من السماء....

أشعل سيجارتي بهدوء... كم أكره السجائر! أكره رائحتها الخانقة وطعمها الذي لا طعم له... ورغم ذلك أجبر نفسي على تدخينها.. أذكر كيف كرهتها من «المجّة» الأولى... ولا أفهم حتى الآن لم أجبرتُ نفسي على إكمال سيجارتي الأولى حينذاك حتى ذرّة الرماد الأخيرة... كنت أعجب بمنظر المرأة وهي تدخن،

وخصوصاً تلك السجائر الطويلة الرفيعة الذهبية... كانت بين الأنامل ذات الأظفار المنمقة بعناية، توحي لي بالثقة والرقي... وكنت أظن أن تدخينها يمنح مدخنيها اللذة والمتعة... وأتخيل كيف يمكن أن تساعد على التفكير العميق والتأمل لما يرافق عملية التدخين من شهيق وزفير وإغماض للعينين وشرود، مع أنني لم أستطع أن أشعر يوماً بأي من هذه النتائج، لا جسدياً ولا معنوياً.. لاشيء غير حرقة في البلعوم وطعم منفر.

وبالرغم من كل ذلك، كرهتها، وأصررت على صداقتها!

ينبهني الطريق الذي تحول فجأة إلى الاتجاه نزولاً أنني أنهيت الطريق الساحلي الطويل وأنني أوشكت على الوصول إلى صيدا.. يومىء لي الجندي عند حاجز «الأولي» بيده أن تفضّلي... أتعمد أن أوقف السيارة وأفتح زجاج النافذة وبابتسامة واسعة أبادره بـ«مساء الخير»... يجيبني بابتسامة مقتضبة ويومىء بيده ثانية «أن تفضلي».. لاأزال ضعيفة أمام البذلة العسكرية ومن يرتديها.. منذ زمن طويل، منذ كانت هذه البذلة الذراعين اللتين تعانقانني كل صباح والكتف التي أغفو عليها... وقبل أن تصبح هذه البذلة نفسها، قطعة قماش مقدسة معلقة في خزانة أمي، تدأب في رتي ثقوبها، تعانقها، تسامرها، وتلقي بين أسرار نسيجها أحاديث الصباح والمساء التي

تشابهت في حزنها منذ عاد أبي ذات عصر يوم بعيد، غارقاً في الأحمر القاني الذي صبغ أخضر ثيابه العسكرية....

أشعر بالاختناق من دخان الذكرى التي لاتزال نارها مشتعلة في طيّات جلد كياني، فأفتح نافذتي ثانيةً وألقي بالسيجارة التي عذّبها الاحتراق البطيء دون قبلات.. سيجارة مسكينة في ريعان شبابها لم ينقضِ من عمرها إلا القليل.... مسكينة فعلاً هذه السيجارة! فلا هي استمتعت بحياتها ولذة موتها بين شفتي متيم بها، ولاهي تقدر أن تشتعل من جديد بعد أن رُميت بنصف عمر، ولم يعد باستطاعتها أن تعود كما كانت،عروساً عذراء بانتظار عاشق سيحرقها شغفاً بدخانها... فعلاً، كم تشبهني هذه اللفافة! وكم تشبه حياتها حياتي!

تستقبلني صيدا.... بذراعيها المفتوحتين، تمسّد بإحداهما أمواج البحر الرابض تحت قدميها يغسلهما بوداعة واستسلام، وتحتضن بالأخرى بساتين الحامض والليمون الغافية بسلام المطمئن في حضن أمه.. أميل، كما عادتي دوماً نحو الأزرق المجنون، وأتمهل في سيري كأني أخاف أن أزعج بدواليب سيارتي إسفلت الشوارع العزيزة على قلبي، حتى أبلغ الكورنيش البحري القديم فأتوقف..

كورنيش صيدا البحري... وبالتحديد الكورنيش القديم....

ناسٌ كثيرون يسيرون على مهل.. جماعات وفرادى. إنها ليلة السبت ومجال السهر مفتوح... أبقى في سيارتي.... أحاول الإنصات وحيدةً إلى الحديث السحري الذي يدور كل ليلة بين الموج ونجوم السماء – هذه الوشوشة غير المسموعة إلا بخلايا الروح، تفوح سكينةً وسلاماً.. كأن البحر، ذلك العملاق الحنون الذي يشكو إليه الناس همومهم وأشجانهم، يتعرى ليلاً أمام أصدقائه النجوم يخبرهم بتعب نهاراته، وبتأثره بأحزان البشر يرمونها بين أحضانه المتقلبة... تراقص أمواجه أنوارها البعيدة، وتسامرها حتى انتهاء نوبة حراستها الليلية للبشرالساهرين، كي لا يرعبهم ظلام الكون المختبئة معالمه تحت عباءته الدكناء...

أترجل من سيارتي وأقف جامدةً كلوح، شاردة في اللاشيء...

ما في داخلي وجعٌ معقدٌ جداً... حجب عني حتى وشوشة الموج... أدير ظهري للبحر، فتزعجني أضواء البنايات المواجهة له... تذكّرني بالمبنى الذي أسكنه في الحي الراقي في الرملة البيضاء... أتذكر كيف كنت طفلةً تتمشى مع والدها على الكورنيش البحري، تأكل الفول المسلوق مع الكمون، وتحلم أن تسكن يوماً في أحد هذه المباني التي تستقبل نهارها بنظرة زرقاء مشرقة، بدلاً

من السكن في منزلها الذي يشبه قبراً مؤثثاً.. أشعر برجفة عارمة تجتاح قلبي، فذلك القبو المؤثث الذي لم يكن يعجبني هو نفسه ما أحتاج إليه الآن بالذات... ذاك المنزل الذي يقع الآن غير بعيد عني، وأملك مفاتيحه دائماً في حقيبة يدي، أنقله من حقيبة إلى أخرى كحرز، كتميمة، أو كتعويذة أخاف إن نسيتها أو أضعتها أن أضيع تلك الطفلة التي أعشقها، الطفلة التي كانت يوماً أنا الحقيقية....

يخطر لي خاطرٌ عجيبٌ... لِمَ لا أذهب الآن إلى هناك، وأقضي ليلتي في بيتنا القديم؟ ما الذي يمنع أن أقضي ليلةً سحريةً بين أحضان الذكريات التي أذوب شوقاً إليها، ما دمت أملك المفتاح ورغبةً جارفةً منحتني شجاعةً مسحت كل خوف من وحدة أو ظلام؟؟

تتصارع فيّ الـ«أنايان»: ترفض الأنا، ابنة الرملة البيضاء فيّ عرضي الغريب، بينما تقفز الأخرى ابنة صيدا القديمة فرحاً... توبخ الثانية توأمها المملة التي تنغص حياتها منذ أنجبتها باختيارها، ومنذ شاركتها في هذا الجسد الذي ترتديانه معاً ويضيق بهما وفيهما... أبتسم لـ«أنا» المجنونة... وأكلمها بحنان: وحدك تعرفين كيف تسعدينني، ووحدك تفهمين لغة روحي الحقيقية...

تجتاحني طاقة إيجابية تجعلني أصعد إلى سيارتي بلهفة

وحماسة طفلة ذاهبة إلى عرس لأول مرة... أقود بفرح باذخ متجهة نحو هدفي: البيت الذي ولدت فيه، بيتنا القديم في صيدا القديمة... أركن السيارة في حيٍّ بعيد نسبياً عن المنزل، ففي صيدا القديمة لا شوارع توصل السيارات إلى كل الأحياء، وحارتنا التي تقع بهدوء في عمق الأزقة، تنتظر من قاصديها وساكنيها أن يصلوها سيراً على الأقدام...

تقتحم أنفي رائحة النراجيل أثناء مروري قرب المقهى الشهير، بضعة رجال لايزالون يسهرون هناك على كراسي القش والخشب، يدخنون النراجيل أو يلعبون الورق... ألمح بينهم وجوهاً أليفة رأيتها من قبل... يبتسم لي بعضهم فأرد الابتسامة وأنا أرى بعين أوهامي الطفلة التي كنتها، مرتدية بيجامتها الحمراء، تبحث بين الكهول عن جدها تنفيذاً لأوامر جدتها التي أوفدتها لمناداته للغداء... أكمل السير خفيفة رشيقة، قدماي تتحركان دون إرادتي، أليست هذه هي الشوارع نفسها التي كما يقول المثل اللبناني: «أكلت من قدمي قطعة»؟! قدماي تحفظان الطريق عن ظهر قلب، أكاد أسمع ضحكاتهما وهما تتبادلان ذكريات رحلاتهما اليومية المعتادة في هذا المكان... أسير، وكلما خطوتُ خطوةً جديدة، أزداد خفةً وتحرراً من الألم العميق في داخلي، ألتهم بعيني كل ما يحيط بي

بلذة تتجاوز حدود النشوة.. ليل صيدا القديمة جميلٌ، فالبيوت المتراصة تنبض بالحياة، والأضواء تملأ الزواريب والأزقة... أصل إلى مدخل حيّنا، درجٌ طويلٌ عليّ أن أصعده كي أصل إلى قلب الحي، يليه زقاقٌ صغيرٌ شديد العتمة لطالما كان يثير الرعب بي أيام طفولتي.. أصعد الدرج مهرولة وكذلك أجتاز الزقاق المعتم، لاأزال أخاف إذاً! ومن قال إن الأطفال وحدهم يخافون العتمة؟ الفرق أن الأطفال يخافون ما يجهلون أما الكبار فيخافون ما يعلمون وجوده وخطورته... أجد نفسي مباشرةً في قلب الحارة التي احتضنت أعزّ أيامي، على الأرض التي طالما رسمت فوقها بالطبشور لعبة الـ«X,O»، بين الجدران الفقيرة التي حفظت صوتي وأنا أصرخ خلال لعبي «لعبة الحبل» و«المطاردة» والتي اختبأت خلفها في لعبة الغميضة...

يا إلهي هل أنا فعلاً هنا؟؟؟ أم تراني أفلتّ إلى هنا هاربةً من حلم مجنون قبل أن تقتلنا معاً يقظةٌ ظالمةٌ محتومةٌ؟

كل شيء هنا لايزال على حاله كما تركته... كل شيء لايزال كما كان... أو هكذا خيّل إلي أو ربما هكذا أحببت أن يخيّل إلي... الشارعُ مضاءٌ، إذاً هو دور الحارة الليلة في الكهرباء ولن تنقطع قبل السادسة صباحاً حسب نظام التقنين في لبنان.. أمرّ من أمام

دكان أبي شفيق، لايزال صامداً مكانه كأنه أحد آثار هذا الحي... كان هذا الدكان في طفولتي الدكان الوحيد الموجود قبل أن تفرّخ الدكاكين وتصبح محالّ البقالة عمل من لا عمل له... كان حينئذ كصندوق الفرجة، ممنوع علينا لمس معظم بضائعه... فالكوكاكولا ومعظم أنواع الشوكولا كانت ممنوعة علينا، ليس لأسباب صحية تتعلق بلائحة السعرات الحرارية بل لأسباب مادية تتعلق بلائحة الأسعار.. والأوعية الزجاجية الملأى بالمكسرات الفاخرة كانت للأوفر حظاً من سكان الأحياء المرتاحين مادياً وفقاً لمعايير الراحة المادية آنذاك... أما قطع الكاتو الموجودة في براد صغير مقفل بالمفتاح المخبأ في جيب أبي شفيق شخصياً، فكانت مخصصة فقط للمناسبات السعيدة والزوار الغرباء! نحن كان لنا فقط علب البونجوس الزرقاء وأكياس البطاطا بالذرة، والبزر المصري الصغير المملح وأحياناً حبات القضامي الملبسة بالسكر...

أصعد بحذر الدرج الصغير المؤدي مباشرة إلى مدخل بيتنا، ورغم ضوء الشارع أتعثر بالدرجة المكسورة التي لم يصلحها «العم رشيد» منذ أكثر من عشرين سنة. أجد نفسي مباشرة أمام باب المنزل، يكاد نفَسي ينقطع من الشوق والإثارة..آخذ نفساً عميقاً علّ قلبي يهدأ قليلاً.. قلبي الذي كاد يمزق صدري بخبطاته العنيفة،

كأنه يريد أن يقفز من مكانه ليدفع بنفسه هذا الباب الحديدي الغارق في سباتٍ صدىء..وبيدٍ مرتجفة أخرج المفتاح من حقيبة يدي، المفتاح الذي لايزال معلقاً بتعليقة مفاتيح خشبية نقش على جهة منها اسمي وعلى الجهة الأخرى نقشت سورة الفلق، لاأزال أذكر حين أهدت إلي جارتنا هذه التعليقة التي أحضرتها لأمي بعد عودتها من زيارة أهلها من دمشق... حملتها أمي حين كنت صغيرة وأعطتنيها يوم زواجي ليكون مفتاح المنزل دائماً معي... ومنذ ذلك اليوم وأنا أحرص على نقلها معي من محفظة إلى أخرى ليرافقني مفتاح هذا المنزل أينما أذهب...

يحدث الباب صريراً مزعجاً وهو يفتح، كأنه يتثاءب ملء رئتيه الحديديتين الصدئتين.. أدفعه ببطء وفي عينيّ نظرةٌ غائمةٌ ملبدةٌ بآلاف الذكريات المتزاحمة في رأسي، تتدافع بين أضلاعي كتدافع تلاميذ دق جرس انصرافهم وتدفقوا من كل ناحية نحو بابٍ لا يتسع لهم جميعاً....

وما إن تستقبلني رائحة الرطوبة حتى أنتقل من عالمي إلى عالم آخر، هو بالضبط ما كنت أحتاج إليه لأخرج من دوامة لا ترحم.

المكانُ خالٍ، ومعتمٌ، أكبس زر الإضاءة الذي أحفظ مكانه جيداً حامدةً الله على توافر التيار الكهربائي في هذا الوقت ومهنئةً

نفسي على أني لاأزال أدفع فواتير الكهرباء بشكل دوري... لا أثاث في المنزل، فقد وزعت أمي كل الأثاث على الجيران قبل أن تترك المنزل إلى البيت الذي استأجرته لها قريباً مني.. لم تترك إلا هذه الفرشة الإسفنجية التي لم تقبل أن تتخلى عنها لغايةٍ في نفسها ربما، أما الخزانة المتهالكة ذات المرآة المكسورة فأنا من رفضت التخلي عنها.. فهذه المرآة هي التي عرفتني طفلةً ذات ضفيرتين معقودتين بالشرائط الكحلية والبيضاء، وعرفتني مراهقة تدور حول نفسها تراقب استدارة صدرها وتغير مقاييس جسدها، أوتحاول تهدئة ثورته بثوراً في وجهها، تارةً بماء الورد حسب توصيات جدتها، وطوراً ببودرة الأطفال حسب نصيحة صديقة مدرستها... هذه المرآة التي عرفتني صبيةً تحاول التزين بما تيسر لها من كحلٍ وألوان تشتريها من البسطة الرخيصة في إحدى أسواق صيدا القديمة تحت القناطر الأثريّة... وشهدت أيضاً على لمعة الأمل في عيني حين أحببت، وبكت معي لدموع خيبات أملي وأحزاني... هي التي راقبت تغير ثيابي من الزهري الطفولي إلى الأزرق المدرسي ثمّ إلى ألوان المراهقة الفائرة.

هنا، في هذا المنزل الصغير صنعت حياتي...

هنا، تكونت شخصيتي...في هذه «الغرفة ونصف» وفقاً لتعبير

أمي، ولدت، بكيت، حبوت ومشيت لأول مرة، هنا نبت أول سنٍ في لثتي وأول فكرة في رأسي وأول حلم في مخيلتي... هنا خفق قلبي لحب أول مرة وثاني مرة وآخر مرة...

هنا رسمت الطبيعة لأول مرة على ثيابي الداخلية ذلك الخط الفاصل بين معنى طفلة ومعنى مراهقة لتعلنني أنثى مكتملة للحياة.

هنا... لطالما حشوت حمالة صدر أمي بالمناديل الورقية وثبتّها على صدري استعجالاً لأنوثةٍ مرتجاة.... هنا وضعت أحمر الشفاه لأول مرة وفي بالي جملة قرأتها في كتابي المدرسي: شفتان كحبة الفراولة.

وهنا أيضاً، بقيت أظن أني قبيحة أياماً طويلة حتى وصلتني رسالة الغرام الأولى تخبرني كم أنا جميلة!

هنا، «كمشتني» أمي ذات مرة في المطبخ الصغير أستمع قبل الفجر بقليل لأغاني عبد الحليم وقد خفضت صوت المسجلة إلى أدنى مستوى... أضحك وأنا أتذكر هذه القصة، حين حملت المسجلة الصغيرة من أمام وسادة أمي النائمة وهربت بها على رؤوس أصابعي إلى المطبخ لأسمع شريطاً لعبد الحليم حافظ كانت صديقتي في المدرسة أوكلت إلي إيصاله إلى حبيبها الذي كان يسكن فوقنا مباشرة...

أذكر كيف خبأته وقتذاك في علبة الأدوات الهندسية بعد أن أفرغتها من محتوياتها التي تركتها في الصف، وكيف كان جاري نفسه يكلفني أن أكتب له رسائل غرامية إلى صديقتي بخطي الجميل وأسلوبي الساحر في وصف مشاعر الحب...

ياإلهي! ما هذه النشوة الصافية الرائعة التي أحس بها... أرى كل شيء بوضوح غريب... كأنه يحدث أمامي الآن، تنتابني الأحاسيس نفسها وأكاد أحس بألم الصفعة التي تلقيتها حينئذ من أمي حين اكتشفت الموضوع كله...

لماذا أشعر بهذا الأمان كله، وحيدةً في منزل معتم خالٍ مهجور.. في هذا المكان الذي لطالما قضيتُ فيه ليالي طويلةً مفتوحة العينين خوفاً من فأر يستغل نومي ليعربش فوق جسدي أو صرصارٍ يطير ليحط بين خصل شعري...

يغرق المكان فجأة في ظلامٍ دامسٍ.. خابت توقعاتي إذاً، وانقطعت الكهرباء منتصف الليل وقطعت معها ذلك الحبل السحري الذي كان يغوص بي في حلاوة الماضي النائي..

يعاودني خوفي الطفولي من العتمة وما يختبىء فيها من أشباحٍ وأشرار، فأتخيل أشباحاً تلوح خلف زجاج النافذة العالية وأكاد من رعبي أصدق أني أسمع وقع خطوات أمي في خفّها الصوفيّ...

أسارع في الخروج من المنزل ركضاً وقد اضطربت اضطراباً شديداً حين استوعبت حجم الخطأ الذي ارتكبته حين جئت إلى هنا وحيدةً في هذه الساعة المتأخرة من الليل... أجرب أن أضيء هاتفي الخلوي فأتذكر أني أطفأته قبل بدء مغامرتي المجنونة... أحاول تشغيله على عجلٍ فتبدأ رسائل الواتسأب بالوصول تباعاً... أفعّل التشغيل على وضعية الطيران لأستطيع أن أبقي الجهاز مفتوحاً دون أن يكون الخط متاحاً للاتصال الهاتفي أو الإلكتروني..

أفكر سريعاً.. ماذا أفعل؟ أأعود أدراجي؟ أم أبقى؟ ولماذا أبقى؟ بل لماذا أعود؟

أنزل الدرج بتمهل شديد فيلفت نظري ضوءٌ آتٍ من نافذة أحد البيوت الأرضية... إنه بيت جميلة، هل يا ترى لاتزال تسكن هنا؟ حين زرت المنزل منذ سنوات قليلة كانت هنا... وأين ستذهب المسكينة، فطالما بقيت على قيد الوجود فلا مكان آخر تلجأ إليه..

أتقدم نحو المنزل وأقف أمام بابه.. إنه منتصف الليل ولا بد أنها نائمة، تسقط على رأسي قطرةُ ماءٍ، لاتزال الرطوبة تلوّن بعض سقوف الأزقة بالأخضر، وتمطر على المارين فيها... كنت أسأل أمي دائماً هل هذا ماءٌ نظيفٌ؟ فتطمئنني شارحةً أن هذا رشحٌ من القساطل المتهرئة التي تمرّ في أعلى الجدار فأسكت على مضض

وأنا غير مصدقة، وتصوّر لي خيالاتي الطفولية أن هذا الماء يرشح من حمّام جارنا في الطابق الأعلى، وأنه ليس إلا بول أطفاله الصغار يتسرب من السقف على رأسي مباشرةً...

أطرق طرقاً خفيفاً الباب الخشبي ذا النوافذ الزجاجية الصغيرة...

ـ من هناك؟ صوتٌ غليظٌ عالٍ يشق الصمت كنور مصباح سيارة اقتحم العتمة...

لا أرد، أحاول أن أركز في الصوت لأتأكد أنها جميلة، فقد خيل إلي أن الصوت الذي سمعته قد يكون لرجلٍ...

ـ من هناك؟ تقول بصوت أقرب إلى الخوف....

أتيقن أنها جميلة، العانس الشهيرة في حارة نزلة الست والحارات المجاورة.... «جميلة» التي لم تكن قط جميلة، كانت العانس المدللة في الحي كله... وكان الجميع ينادونها «جمول».

كانت صاحبة لسان يمكن أن يشكّل بطوله حزاماً للكرة الأرضية... وكانت نساء الحي يتبارين في دعوتها إلى صبحياتهن، إذ إن فنجانها كان كضرب المندل كما كن يعتقدن... كانت تبصّر لهن في فناجين القهوة، وأيضاً تفسر أحلامهن... ولم يكن هذا

بالشيء القليل لنساء بسيطات تتوقف حياتهن على ما يرسمه بقايا التفل في كعب فناجينهن، أو ما قد ترمز إليه أحلامُ نومٍ عميقٍ بعد شقاء يومٍ متعبٍ طويلٍ...

كانت جميلة دون غيرها تستطيع أن تبشرهن برزقة «حرزانة» تعوم تباشيرها على وجه السائل الأسود الكثيف، ووحدها جميلة أيضاً كانت تعرف كيف تفك الطلاسم التي خطّتها ذرات البن الكسلى التي استراحت بكسل في كعب الفنجان، فهنا محبسٌ يزغرد لأم البنات الثلاث المهووسة بتزويجهن، وهناك طائرة ستحط في دار الجارة الفلسطينية أم الشباب الأربعة المقيمين في الدانمارك، وهذه عين مفتوحة في أسفل فنجان العروس الجميلة، «تقلعها» جميلة بإبهامها العصبية وهي تتمتم رقية «أو دعاء» أو آيات قرآنية لدفع الأذى والشر عن الفتاة المحسودة من قريناتها على فرحتها وطرحتها...

هذا كله عدا المنامات... والمنامات موضوعٌ آخر.. أذكر حين حلمت أم زياد بأنها فقدت فردة سكربينتها ذات الكعب العالي، كيف اسودّ وجه جميلة وقتئذ وبدأت تطلق التحذيرات من أن امرأةً أخرى ستستولي على زوجها، وبدأت أم زياد منذ ذلك الحين تشك في جميع نساء الحي ومن ضمنهن أمي!

وأذكر حادثة طريفة جرت مع جميلة حين جاءت جارة جدتي لمشاركة أمي وجاراتها في إحدى صبحياتهن، وطلبت من جميلة أن تقرأ فنجانها وتفسر لها حلماً حيرها وشغل بالها إذ رأت في فنجانها أنها تزوجت برجل غير زوجها، فأجابتها جميلة بلهجة الواثق الناصح أن عليها التوجه إلى أقرب عطارٍ لتشتري خلطة أعشابٍ مقوية لزوجها لأن حلمها يشير إلى عدم اكتفائها معه جسدياً... وما كادت المسكينة تنهي حديثها حتى ضجت الحارة كلها بصراخها وهي تحاول التخلص من جارة جدتي التي أمسكت شعرها وبدأت بضربها وقد جن جنونها وبدأت تولول رافضةً هذا التشكيك «الخطير» في شرفها وفي فحولة زوجها!!

أما الحادثة التي لا تغيب عن بالي أبداً، فهي ما حدث بين جميلة وخالتي أم نجيب... إذ إن خالتي رأت نفسها في المنام ترتدي ثوباً أبيض وتتمشى في سهل أخضر مترامي الأطراف... حينئذ، تنبأت لها جميلة بالموت، وأوصتها بالتوبة النصوح قبل حلول الأجل الذي اقترب كثيراً... أذكر كيف دار النحيب في بيوت الحي عدة أيام كنت أرى فيها النساء يبكين ليل نهار، ويتغنين بمزايا أم نجيب، ويطبخن ويغسلن ويقمن عنها بكل واجباتها المنزلية، بينما هي متفرغة تماماً للعبادة والصلاة بعد أن تصالحت مع

أصهارها وطلبت الصفح من كنتها التي شمتت بحالها... وأهم ما في هذه الحادثة، أن أم نجيب من بعدها «قبرت» نصف نساء الحي وظلت حتى تاريخ مغادرتنا المنزل «اسم الله حولها» كالفرس...

ما أجمل تلك الأيام! كم كنا سعداء بامتلاكنا لا شيء غير أنفسنا ومن نحب... ربما كنا نحب بصدقٍ لأننا لا نملك إلا المحبة الصادقة نقدمها لمن نحبهم، وربما كنا غلاة فعلاً على قلوب من يحبوننا لأننا كنا أثمن ما يملكونه بالمعنى اللغوي الحرفي للكلمة... فعلاً السعادة تكون في أبهى صورها حين تكمن في البساطة، والغريب أننا لا نعي قيمة السعادة حين تكون بين أيدينا... ما أبسطهن أولئك النساء وما أطيبهن رغم أن أحاديثهن كانت تتمحور حول مواضيع الطبخ والحماة الظالمة والزوج النزق والكنة التي كتبت لخطيبها «عملاً» أو «سحراً» كي تبعده عن عائلته....

«إذا لم تجب الآن فسأطلق عليك النار فوراً».

يشرئب صوت جميلة كحصاةٍ مسننةٍ سقطت في عمق بحيرة ذكرياتي...

ضحكت وأنا أتخيل جميلة القصيرة النحيلة مع مسدس... صورة مضحكة ككاريكاتور...

«جميلة... هذه أنا لا تخافي... أنا قمر ابنة سميرة».

«قمر ما غيرها؟ قمر تبع الكتب والمجلات؟».

«إيه إيه... قمر نفسها... بكتبها ومجلاتها... هيا افتحي قبل أن يقضم رجلي جرذ سمينٌ من جرذان حارتنا».

تفتح نافذة الباب وابتسامتها تسبقها وتقفز في وجهي...

«ييي... تقبريني يا قمر... تقبري عظامي... قمر الشطورة أم الدرس... يا مئة أهلاً وسهلاً...».

ما أشهى هذه الـ«تقبريني» حين تصدر عن لسان محبٍ صادق تعربش على نوافذ القلب المتعب كعريشة وارفة... تهرهر ياسمين حبٍ دافىء على كل الزوايا الجرداء العطشى...

النافذة الزجاجية الصغيرة في وسط الباب استحدثت لها قضبان حديدية؛ أيام زمان كنت أدفع هذا الشباك الزجاجي نصف المفتوح دائماً وأمد يدي إلى الداخل وأفتح الباب وأدخل.... كانت كل أبواب المنازل في حينا تفتح بهذه الطريقة... أما الآن، فالواضح أنه ما من شيء عاد يفتح هكذا، لا الأبواب ولا النوافذ، حتى القلوب سيجت بقضبانٍ حديدية...

ولكن، أهذا الوجه وجه جميلة؟ أهاتان العينان المطفأتان

عيناها؟ عينا جميلة اللتان كانتا تلفان كل ما يحيط بهما بنظرةٍ واحدةٍ هما نفسهما هذان المصباحان المكسوران المكسوان بالغبار؟

تفتح الباب وتغمرني بعناق قوي، وتنهال القبلات الرطبة على خدي مع هطل دمعٍ دافىءٍ أسخاه التعب...

«خبريني عنك يا قمر.. كيفك يا حبيبتي.. وكيف زوجك؟ وأولادك؟ ماذا أصبح عندك من أولاد؟».

- الحمد لله يا خالتي الحمد لله...

- لا واضح عليكي أنك مرتاحة.. بعرف زوجك مبسوط كتير الحمدلله...

ومبسوط باللهجة اللبنانية يعني غنياً مادياً...

- كم ولداً صار عندك يا أمي؟

يا أمي، هذه الهدية المجانية التي كانت توزعها النساء بغير حساب على كل الأولاد... فالأم في حيّنا هي أم أولادها وأولاد جاراتها أيضاً... وغير المتزوجة هي ابنة الجميع وأمهم أيضاً...

- روقي شوي يا جمول... خليني ارتاح... إعمليلي فنجان قهوة، أريد أن تقرأي لي الفنجان...

- تقبريني وحياتك ما في بن... خلصوا مبارح يا عمري... وعمك أبو سامي الدكنجي من يومين ما فتح... عم يشم الهوا عند ابنه الساكن في كفرجرّة... بتعرفي فوق هوا نظيف وطبيعة أحسن من خنقة البلد... وأنا ما بشتري من عند غيره... عشرة عمر أبو سامي ولو... رح أعملّك شاي، دقيقتين بس يا عمري..

لا تشتري من عند غير أبي سامي؟ طبعاً لن تشتري من غيره! ومن سيقرضها ربع أوقية بن في هذه الأيام غير أبي سامي...

كم مرة، بل كم «مرات» وشوشتني أمي في المطبخ الصغير أن أذهب إلى دكان أبي سامي لأشتري كمية من البن تكفي لبضعة فناجين من القهوة لضيفات غير متوقعات ظهرن في آخر الشهر بعد تبخر الراتب كله... وإذا لم يوجد البن، فمغلف من مسحوق «التانغ» بنكهة الليمون لإعداد الشراب المنعش...

«وينك يا قمر ليش مش طالع صوتك؟».

«هون أنا بانتظار الشاي من يديك الحلوتين...».

وأقبلت جمول.. بيدها صينية معدنية مستديرة عليها أقداح الشاي الزجاجية وصحن من بسكويت «الدبكة»..

مشهد كان كافياً ليفيض دمعي كما لو أن سداً أزيح عن وجعي

المكبوت... هل لايزال هذا البسكويت موجوداً في السوق؟ كان حلوانا المفضلة أيام الصغر... كانت جميلة تنظر إلي بذهول لم أعرف معناه إلا حين اكتشفت أني التهمت صحن البسكويت كله وفرغتُ من كوب الشاي رغم سخونته...

- أنت جائعة يا حبيبتي؟

نعم، جائعة... أنا جائعة... كل ما فيّ جائع وإلا لِمَ أتيتُ إلى هنا؟ جائعة للحب... للحنان... للطعام المعد بحب، للكلام المجبول بالعاطفة الصادقة... لضمة أمي وحضنها... جائعة لنفسي التي لا أجدها... كلّي جائعة يا جمّول...

- ماذا لديك؟

- برغل بالبندورة.. بقي القليل..

- هاتيه يا جمول...

انتظرت الصحن بفارغ الشوق، بفارغ الجوع، وبفارغ الحنين... لم آكل هذا الطبق منذ توفيت أمي...

مع أول لقمة شعرت بالفرق... ينقصه الكثير من البندورة... بائتٌ... شعرت جميلة بخيبتي فقالت:

- كيلو البندورة بـ٣٠٠٠ ليرة يا قمر... حتى الأطباق الرخيصة

لم يعد في إمكاننا أن نطبخها على ذوقنا... لم يعد هناك أي شيء على ذوقنا في هذا البلد... حتى البرغل بالبندورة...

- لذيذ جداً يا جمول... وحياتك بشهّي... سلمت يداك يا حنونة... جمول... أيمكن أن أنام عندك الليلة؟ كنت أنوي النوم في بيتنا ولكن لا كهرباء... والآن تجاوزنا منتصف الليل...

- أهلاً وسهلاً... أهلاً وسهلاً... بتنامي مطرحي وبقلبي وعلى تختي...

- لا... لا... أنام هنا... أو أنام إلى جانبك... كما كنت أفعل صغيرةً حين تتركني أمي بعهدتك لتمريض جدتي في المستشفى...

- إنتظري سأغير الشراشف... الله يرحم أمك يا قمر... كانت ست الستات....

تفتح خزانة الحائط لتحضر شرشفاً نظيفاً، أكاد أعترض على إتعابها... ثم لا أقول شيئاً وأتركها تفعل بعد أن نهرتني ابنة الرملة البيضاء التي كانت حتّى تلك اللحظة حردانةً صامتة... من الأفضل أن أنام على ملاءةٍ نظيفة... نستلقي على السرير وما هي إلا دقيقة أو أقل حتى يرتفع شخير العجوز... وطبعاً لن أستطيع أن أنام - أنا التي يسحبها من نومها وقع خطوات خفيفة فوق سجادة غرفتها...

أنسلّ ببطء وأفتح نافذة الباب الزجاجية المسيجة - أقرّب وجهي من القضبان كحبيسةٍ تنظر خارج سجنها أحملق شاردةً بباب بيتنا المواجه... غارقةً في أفكاري وتخيلاتي...

أتخيلني، طفلةً ضاحكةً تخرج مسرعةً من باب بيتها، شنطتها المدرسية تتراقص فوق ظهرها وبيدها عروسة الزعتر... تقفز من مخيلتي هاربةً مني وتفتح باب المنزل الموصد تماماً...

تضج الحياة داخل البيت المعتم... تضاء الأنوار وترفع الستائر البالية وينتشر الأثاث البسيط في كل الزوايا..رائحة البصل المقلي بالسمن البلدي تملأ أجواء صباح يوم عطلةٍ مدرسيةٍ شتوية، إيذاناً بترويقة «الكشك» الشهية مع المكدوس... تخالطها رائحة الرطوبة المزمنة التي طبعت طفولتي ومراهقتي؛ فالشمس لا تدخل المنزل إلا لإلقاء التحية وتخرج سريعاً... شمسٌ أخرى كانت تضيء المنزل: المحبة... أنا من جديد، بالبيجاما الشتوية ذات الدب البني على صدرها، مستلقية في الركن الأكثر رطوبة، على فراش إسفنجي خاطت له أمي غطاءً أحمر ذا نجوم كبيرة، هو الفراش نفسه الذي لايزال موجوداً واحتفظت به أمي، فقد كان سريري ومكتبتي وأرضي وحاضن أحلامي الشاهقة... هذا أبي بجريدته اليومية التي بسببها أطلق عليه سكان الحي لقب «الأستاذ» نتشارك

في الفرح بورقة علاماتي الشهرية نستعرض المواد والعلامات وعبارات التقدير والتهنئة....

الجريدة نفسها، بعد انتهاء صلاحيتها الموقتة بيوم واحد، مفروشة على الأرض على غطاءٍ صوفي قديم صار بعد ما حرقته جمرات نارٍ وقعت من نارجيلة جدي، مفرشاً للطعام.. صباحات العيد، وأقراص الفستق الحلبي والجوز والملبن الذي لا يتقن صنعه إلا أبناء صيدا من صانعي الحلويات...

فجأةً، تظلم الأضواء مجدداً، وتنسدل الستائر... تختفي علب الهدايا وصحون الطعام وأقراص الحلوى.... أنا أيضاً مرّة أخرى، أجلس القرفصاء ملتصقة بالبراد في زاوية المطبخ، أغطي وجهي بيدين مرتجفتين منخرطة في بكاءٍ مرير، يوم أعلنتني الدنيا «يتيمة» للمرة الأولى، وقبل أن تدأب في تذكيري بذلك كل فترةٍ قصيرةٍ أو كلما تسنى لها أن تذكرني... تلك اللحظة المظلمة، حين انتقلت من خانة «الطفلة» إلى خانة «اليتيمة»، حين امتلأت فضاءات روحي فجأةً بالصراخ والعويل وسواد ملابس النساء المولولات....

هذه أنا – أقف صامتةً أمام جثة من عاد «ملفوفاً» بالعلم اللبناني «وشهيداً»، أستعيد فوق شحوب وجهه كلام مدرّسة التربية الدينية في مدرستي وهي تشرح لنا كيف أن الله لا يرد دعوة عبده إن دعاه،

فهو قريبٌ مجيب يستجيب دعوة المظلومين من خلقه، وأمنّي النفس بأن يستجيب دعائي بأن يستيقظ أبي النائم أمامي بوجه فقد لونه، فتتورّد وجنتاه ويصرخ في وجهي: «بقّوسي»...

ثم أنا – عند الفجر، تلبسني خالتي ثياباً قاتمةً وأنا أرتجف برداً ونعاساً وخوفاً، لنمضي مع الجثة الخرساء في طريق طويلة طويلة، إلى قريتنا البعيدة، في رحلةٍ بدأت يومئذ ولما تنته حتى يومي هذا...

أنـا... مراهقة ودود مطيعةٌ بإرادتي، أحمل سل الغسيل المليء أسنده ببطني وصدري، وأصعد درج المبنى لأصل إلى السطح حيث سأنشر الثياب المبللة... شمس حارقة تمد لي لسانها وملقط الغسيل اليومي يسقط أمام قدمي يحمل الورقة التي ستداعب كلماتها دقات قلبي... أغاني عمرو دياب وإيهاب توفيق ومصطفى قمر وراغب علامة يغني: لو شباكك عشباكي كنت بقلّك كيف بهواكي... أذكر يوم سمعتها من الراديو وقرأتها مكتوبة بخط يد هشام، يومئذ لم أكتف بالقراءة والابتسامة من بعد، بل ألقمت حمامتنا الزاجلة رسالتي التي كتبت فيها كلمةً وحيدة – تلك الكلمة التي هي محور الكون «أحبك»..أذكر كيف أطبق ملقط الغسيل منقاره الخشبي على الورقة بقوة، قبل أن يطير إلى السطح المقابل... كأنه خاف على محتواه الثمين من أي أذى... كأني أشم

الآن في أنفي رائحة البزر المصري الصغير المملح، وكأن لعابي يسيل لطعم الحامض المقشر الذي كنت ألتهمه مع صديقات ذلك السطح في عصرونيات نيسان وأيار!!

أنا أيضاً وأيضاً... مراهقة نزقة متمردة، بإرادتي أيضاً، أرفض دعوة جدتي للمشاركة في جلسات دق الزعتر والسماق وتنعيمهما أوائل الخريف إعداداً لمؤونة الشتاء، وأتذمر من أوامر أمي المتكررة بأن أربط شعري الطويل المتدلي فوق الطناجر المعدنية الضخمة التي تطبخ هي وجدّتي فيها مربيات التين والتفاح والسفرجل والمشمش كل في موسمه..

أهز رأسي هزاً عنيفاً... كأنني أريد أن أطرد منه كل هذه الشياطين فوراً.... فالأفكار تتقافز على أرض ذاكرتي قفزاً موجعاً كأنها تتسابق في الوصول إلى النوافذ المغلقة في أسوار الواقع المحصنة بسياجات الحقيقة...

الحنين أحياناً شديد الإيلام، إنه يهطل حمماً من عيوني، ليس مطراً مفاجئاً أو غير مألوف، فقد اعتدتُ منذ زمنٍ مواسم البكاء والأحزان...

كم الساعة الآن؟ لا شيء حولي على الحيطان المتقشرة جراء الرطوبة يوحي بإمكانية وجود ساعة.... لا شيء غير ظلي يعكسه

ضوء الشموع مخيفاً كالأشباح... أتخيله يتحرك دون إذني يراقص أرواحاً وحيدةً هائمة تبحث عمّن يناجيها في هذا الوقت الموحش من الليل... هاتفي الخلوي الذي فرغت بطاريته لفظ أنفاسه الأخيرة بين يديّ دون أن يخبرني كم الساعة، أضحك لفكرة أنه قد مات عطشاً هو المتعوّد الشبع والدلال...

أتمنى لو أنني أحمل إحدى ساعاتي الكثيرة التي لا أستعملها، فأنا كما دائماً لا مزاج لدي لحمل الساعات، الساعة تخنق معصمي، يكفيني ذلك الطوق الذي كان يخنق إصبعي...

صوتٌ عذبٌ عميق يهزني... صوت قوي دافيء يفيض بالأمان الذي يضخه في قلبي... سخيٌّ بالحميمية التي يلف روحي بها: صوت أذان الفجر... المؤذّن نفسه لم يتغير، لا يمكن أن أخطىء صوته الذي اقترن في وجداني بأوقاتٍ دافئةٍ، الصوت الذي كنت أسمعه وروحي تتنزه في ذلك الممر السحري بين الغفوة واليقظة، يتدفق كالمطر الناعم على سطح حواسي من الجامع القريب من منزلي، ثم أسمع بعده خرير الماء ينساب خافتاً في الحمّام مع تمتمة أمي الخفيفة وهي تتوضأ لصلاة الصبح... كان هذا الصوت يأسرني، أعشق الاستيقاظ فجراً عليه، ثم أشدّ لحافي فوق رأسي مستغربةً قدرة أمي على تحمل برودة الماء شتاءً للوضوء ومغادرة

دفء السرير وأكمل نومي صافياً رقراقاً كنور الفجر الذي بدأ يبسط شاله الحريري على الدنيا... دائماً كان نومي بعد الفجر خالياً من الأحلام.. وكطفلة، كنت أعتقد أن أذان الفجر يفصل بين فترتين من النوم، فترة النوم العميق المزدحمة بالأحلام والكوابيس وفترة النوم الخفيف الذي نطفو على سطحه ويمسد روحنا بحنان لتستيقظ نشيطة استعداداً لنهار طويل...

إنه الفجر إذاً... وأنا لما أنم بعد..

أتكىء على الكنبة العريضة قرب التلفاز وأحضن مخدةً صغيرةً طرزت عليها عبارة صباح الخير أحضرتها معي من سرير جميلة... ودون إبطاء أغرق في نومٍ عميق...

أستيقظ على صوت رخيم يقول لي: اشتقت إليك يا حلوتي، ألم تشتاقي إلي؟ هيّا اسبقيني إلى السّطح لأتصبّح بوجهك الجميل.. لن أدعَك وحيدةً بعد اليوم، ولن تحزني قربي أبداً.. أتركي كلّ شيءٍ واتبعيني فأنا أنتظرك منذ عمرٍ طويل...إنّه صوت هشام، ها هي عيناه العميقتان تضخّان الدفء في قلبي الباكي.

... أفتح عيني بفزع...فيتبخّر هشام بصوته وعينيه.. لا شيء إلّا أطرافي الباردة وهذا الوجع غير المحدّد المكان في كلّي!! أين أنا؟ صوت قرقعةٍ يأتي من مكان ما..أستعيد بسرعة تفاصيل ليلتي،

الصوت يأتي من المطبخ... لا بد أنها جمول إذاً، استيقظت وتعد الشاي لكلينا...

يملؤني حضور هشام... أكاد أشمّ عطره في أنفاسي!

- صباح الخير جمّول، كم الساعة الآن؟

- صباح النور، إنها السادسة..

- حقاً؟ لم أنم أكثر من ساعتين إذاً على الأرجح...

- لماذا نمتِ في الخارج يا قمر؟

- سهرت كثيراً ولم أشأ إزعاجك...

- أنت لا تزعجينني... تنامين في قلبي لو أردتِ..

تخرج مع صينية الشاي، نجلس متقابلتين كصديقتين قديمتين.. أشجع نفسي لأسألها السؤال الذي ستتوّج إجابتها عليه مغامرتي هذه.. أريد أن أسألها عن هشام، الذي صار بطل الجزء الأهم من مسلسل ذكرياتٍ وجدت نفسي منجرفةً فيه حتى النخاع..

- جمول أريد أن أسألك سؤالاً .

- إسألي..

تذكرين هشام؟ هشام ابن أم هشام اللذين كانا يسكنان قربنا.

– هشام؟ هشام أبو الموتوسيكل وأغاني هاني شاكر.

أضحك من قلبي لجوابها...

– مش بس هاني شاكر... شو نسيتي عمرو دياب وعبد الحليم؟

– نعم أذكره... ما به؟

– أتعرفين أين هو الآن؟ أين يمكن أن أجده؟

– وماذا تريدين منه؟ ألست متزوجة؟

– أريد فقط أن أعرف...

– «لا... ليس من الضروري أن تعرفي».. (تقول مكفهرة الوجه).. عالمه مختلف عن عالمك..

– هل تزوج؟

– نعم تزوج... وهل سينتظرك حتى الآن؟ إتزوج وخلص.

– أين يقيم الآن؟.. أريد عنوانه...

– وما لزوم ذلك يا قمر؟ هل تحنين إلى حبك القديم؟ ألست متزوجة؟ لماذا تريدين إيقاظ الموتى؟..

– أريد عنوانه فقط – أريد منه خدمة صغيرة...

– وما نوع الخدمة؟ تصليح سيارتك مثلاً؟ تقول غاضبة.

– سيساعدني وعائلته في رسالة الدكتوراه التي أعدّها... موضوعها يحتاج إلى بعض الشهادات الواقعية وتقارير من واقع الحياة... هشام وعائلته سيساعدانني كثيراً....

– دكتوراه.. ما شاء الله... إذا كان الموضوع هكذا لا مشكلة بالتوفيق يا حبيبتي... طول عمرك شاطرة... يا أم مجلات وجرائد لم يذهب كل ذاك الدرس هدراً.... والنظارات كعب القنينة... صحيح يا قمر أين نظاراتك؟...

– نظاراتي؟ وهل سأضع نظارات طبية في زمن اللايزر واللايزك أو أقله العدسات اللاصقة...

– لايزك؟ ما هذا اللايزك؟

– إنسي... المهم لا نظارات الآن.... يا جمول... سأغادر الآن... شكراً على الاستضافة حبيبتي...

– زوريني مرة أخرى قمر... سأطبخ لك برغلاً مع البندورة على أصوله هذه المرة... ارجعي سأنتظرك...

أقبلها بحرارة... أقبل فيها رائحة ذكرياتها مع أمي وما علق من عطر شعر الطفلة الصغيرة التي كنتُها يوماً ذات عناقٍ على

صدرها... وأقبّل فيها رماد الأيام الجميلة العابرة الذي لوّن وجهها الهرم... وأخرج...

أخرج من بيت جميلة بأملٍ جديد... الإثارة تضخّ الأدرينالين في أنحاء جسدي، وزبد الشعور بالمغامرة يجرف كل إحساس بحذر أو تأنيب منطق.. نعم، أنا أريد أن أعيش هذه المغامرة... فلتكن مغامرة غير محسوبة...

مغامرة غير منطقية... فلتدمرني إن شاءت... أنا ميتةٌ منذ زمن بعيد... أنا ميتةٌ بعدة أشكالٍ... أنا متُّ كثيراً كي أصل إلى هنا... كي أتحول إلى مقامرةٍ مجنونةٍ تلعب بكل ما لديها لتعيش مرة واحدة... أنا متُّ أول مرة حين أعلنت الحياة موت أبي... ومتُّ ثانيةً حين خطف الموت نفسه أمي... ومتُّ الموت الأكبر حين خذلني قلبي باختياره زوجاً اغتال فيّ نفسي التي أحبها... فلأجرّب إذاً أن أعيش قبل موتي الأخير.. ولتكن ميتةً لذيذةً.. ميتةً تستحق من أجلها أن أموت!!

هشام

صوت الراديو الصغير يلعلع من شباك منزله «وينطنط» في أرجاء الحي الفقير... «بتلوموني ليه»، «من تكون حبيبتي»، «سمراء يا حلم الطفولة»... وأنا على فراشي أسمع وأفرح... أسمع وأعرف.. أعرف أنني المقصودة... كنت أحلم بهذا الوسيم الذي ينتظرني كل صباح أمام باب داره ليتصبّح بوجهي كما يقول... هذا الرومنسي الذي يقطف أزهار الغاردينيا التي زرعها على سطح منزله خصوصاً لي، ليزرعها في يدي قبل أن يسير خلفي حتى أصل إلى المدرسة، وأنا أشكّها خلف أذني كغجرية... هشام الذي لا يكبرني بأكثر من ست سنوات،كان وسيماً تلك الوسامة الشاهقة، الفواحة بجاذبية الرجولة الكاملة الدسم.... كل ما في شكله الخارجي كان مسرف الجمال: سمرته الحارة التي تذكرني بدفء وجه أحمد زكي الذي كنت أعشقه، شعره الغزير الجعد بنعومة لامعة، عيناه اللتان

كأن الغموض لوّنهما بسواد سحره، أنفه الشامخ.. كان متوسط القامة كأن جزءاً من طوله استعاره عرض كتفيه.

كان هشام بوسامته الآسرة، يشبه في خيالي أبطال روايات عبير الذين كنت حين أقرأ الرواية، أكاد أشاهدهم بأم عيني، كأني أشاهد فيلماً على شاشة ورقيّة لفرط ما كنت أغرق في تفاصيلهم... والتفصيل المهم في القصة أن هشام كان فلسطينياً من أم لبنانية.. والده لم يكن يملك من حطام الدنيا غير عمله كدهّانٍ مياوم... يعتمد على مساعدات الأونروا للطبابة والتعليم، ويعيش وعائلته مما يكسبه يومياً من عمله في الورش. أما أمه، فكانت سيدة منزل قديرة وعلى قدرٍ وافرٍ من الجمال.. كانت تحلم بتعليم أولادها ليصبحوا حين يكبرون ذوي شأنٍ في المجتمع، إذ كانت متعلمة تعليماً متوسطاً، ولتساعد زوجها في أمور المعيشة كانت تجمع في بيتها بعد الظهر عدداً من أولاد الحي لتساعدهم في دروسهم في مقابل مبلغ شهري زهيد... ولوالدَي هشام قصة حبٍ عنيفة، فوالدته كانت ابنة عائلة صيداوية معروفة في المدينة، وقصة حبهما بدأت حين تسجلت «وداد» في معهد تقني لتعليم المحاسبة في قلب المدينة بعد نيلها شهادة البريفيه، وكانت تستقل السرفيس «يومياً» من منزلها إلى وسط المدينة حيث المعهد، وذات صدفة

صعدت كعادتها في سيارة الأجرة وجلست في الخلف حيث كان يجلس شابٌّ أسمر شديد الوسامة... والتقت عيناهما ذلك اللقاء الذي يجعل لحظة قصيرة من العمر تغيّر مجرى العمر كله... وحين نزلت من سيارة الأجرة، كانت قد تركت جزءاً من عينيها في تلك النظرة التي أخذت قلبها إلى الأبد...

أذكر كيف كانت وداد تخبر أمي بفرحةٍ صادقةٍ تفاصيل لقائها الأول مع جمال: أغنية صباح التي كانت تصدح من راديو السيارة والتي نسيت ما كان اسمها، الشرارة التي شعرت بها تنطلق من تلاقي نظرتيهما وتسري في جسدها كصفعة كهربائية... كيف أعجبت بسمرته الغامقة وصدره الواسع... وكيف أخبرها لاحقاً بأنه أعجب ببشرتها البيضاء وشعرها الكستنائي الناعم وعينيها اللوزيتين... وكيف شبهتها أمه بشمس البارودي النجمة المعروفة آنذاك متغزلةً بجمالها حين أتت بعد ذلك لخطبتها.... وكيف تعمدت في اليوم التالي أن تنتظر السرفيس الذي يقلّه إذ سمعته يخبر السائق أنه سينتظره في الغد في الموعد نفسه تماماً... وكيف صار يدسّ في يدها كل يوم ورقة كتب عليها بلغة ركيكة وبخط سيئ كلمات الحب والهيام...

والأهم، كيف لم تمضِ أسابيع قليلة حتى أتى بأهله ليخطبوها

من أهلها ومعهم العرض التالي: غرفة مؤثثة في دار عائلته في المخيم، وسطيحة ملأى بأحواض الزعتر والياسمين والأكثر من الكثير من الحب...

حينذاك، قامت القيامة ولم تقعد، واشتعل المنزل... بكت كثيراً، بكت حتى مرضت... حتى كان يومٌ اتفقا على تهديد والدها بالهرب معاً للزواج خطيفة... فرضخت العائلة خوفاً على سمعتها في مدينةٍ محافظةٍ كصيدا، وتم الزواج بشرط وحيد: السكن خارج المخيم...

وهكذا كان... استأجرا بيتاً صغيراً في أحد أحياء صيدا القديمة، وعاشا حياةً هادئة هنيّة يملأها الحب الذي كان جمال يغسل في بحيرته العذبة كل يوم تعب نهاره، وتذوّب فيه وداد مخاوفها وهمومها الحياتية...

وفي هذا الجو العائلي، كبر هشام... وكما ورث رومنسية أهله، ورث أيضاً ظروفهم الصعبة..

أما أنــا... فكنت أكبر وأزداد جمالاً كل يوم، وتفوقاً في دروسي... وكانت رومنسيتي الفيّاضة كنبعٍ حديث التفجر تغرقني في أحلامٍ طويلةٍ بطلها هشام عن حياة جميلة برفقته وبيتٍ ذي نوافذ

كبيرةٍ تسمح بمرور الهواء والشمس والموسيقى وشرفاتٍ مزروعةٍ بالغاردينيا والحبق... وأولادٍ يشبهونه وبناتٍ يشبهنني...

كنت أكبر في بيتنا الصغير، مع بعض الصراصير التي تكزدر في الزوايا، وجرذٍ يطيب له كل فترةٍ أن يقفز من بالوعة الحمام العربي التقليدي، لنعيش معه ساعاتٍ من الرعب والإثارة حتى يأتي أحد شباب الحي ويتمكن من قتله...

وكل صباح، كنت أرى نفسي في المرآة أكبر قليلاً من اليوم الذي مضى، فأخاطب الوجه الجميل الذي أراه: سيكون لك يوماً شأنٌ كبير... ستعيشين حياةً أجمل من أحلامك، الحياة التي تليق بك فعلاً...

عشت طفولة ومراهقة من أجمل ما يكون... أستمتع بكوني محط أنظار الجميع... أصعد إلى سطح البناية عند الغروب لألقي تحية المساء على الشمس التي تفرش وداعها البرتقالي على سطوح المنازل وقبب الجوامع وأزقة الحارات قبل أن تنام.. وككل أولاد الحارات كنت أركض في الأزقة، ألعب «الغميضة» و«اللقيطة» ولعبة «الإكس» أو «المرسومة على الأرض بالطبشور»... أستمتع بتنافس فتية الحي لاستمالتي، أشاهد الفيديو كليبات التي كانت حينذاك موضة حديثة بدائية الإخراج والإنتاج،وأحلم، أحلم كثيراً... وهل أجمل من أنني كنت أحلم؟

أن تملك القدرة على الحلم يعني أن يملأك اليقين بأن القادم جميل جداً، أيعني أن يكون الغد أمامك حقولاً تترامى خضرةً واتساعاً وشموساً تضحك في وجهك وتمد أيديها نحوك بدعوة مفتوحة لمعانقة السعادة.. أن يكون الحاضر بالنسبة إليك مجرد تهيئة لما سيأتي من خيرٍ محتومٍ...

كنت أعيش في أزقةٍ تتعاون نساؤها على تمريض أولادهن وتدريسهنّ بما تيّسر، وعلى إعداد إفطار رمضان وحلويات العيد، وعلى إعداد مؤونة الشتاء... في تلك الحارات، كنتُ طفلةً آكل المثلجات مصنوعة من فواكه مدقوقةٍ باليد دون ملونات في نهارات الصيف الطويلة، وأستمتع بالسحلب الساخن في مساءات الشتاء... وإن وقعتُ ذات يومٍ أثناء لعبي تنهضني مئة يد لتحملني إلى المستوصف القريب... وإن حدث يومٌ لم تعجبني طبخة أمي أقصد البيت الذي فيه طبخة تعجبني لأتغدى دون خجلٍ أو تردد.. مشكلتي العميقة، مشكلتي التي خربت كل حياتي، هي أنني اعتبرتُ كل هذه النعمة التي أعيش فيها مجرد ماضٍ لمستقبلٍ آخر... مستقبلٍ أنتظره سيأتي خالياً من الحارات والأزقة.. بيوته مفتوحةٌ مباشرة على زرقة السماء لا على الأسقف التي يتأكلها النش والرطوبة... بيوت في مبانٍ لها مصاعد لا سلالم مكسورة الجوانب... وكنت أظن أن هذه هي الحياة الحقيقية!

حين تتعامل مع حياتك على أنها ماضٍ، يصير صعباً عليك جداً أن تعيشها كما يجب...

وكمراهقة واسعة الخيال، كنت بحاجةٍ إلى قصة حبٍ تليق بذكرياتي التي أصنعها للمستقبل الذي كنت أعيش ماضيه... ولم يكن حولي أجمل من هشام بطلاً لهذه القصة...وأين يمكن أن أجد بطلاً أكثر وسامةً ورومنسيّةً وعشقاً لي في هذا المحيط الضيّق الذي تخنقه الجدران الضخمة على أنواعها من كل جانب؟ وهكذا كان، واخترتُ أن يفور أول ينابيع أنوثتي ومشاعري الغضة على يدي حب هشام العاصف.

كنت صاحبة خيالٍ مجنّحٍ جبّار، وبالتالي بارعةً جداً في نسج القصص، فكيف بقصتي التي سأبدأ بها حياتي كأنثى؟ ولذلك عشتُ مع هشام قصة تعمدت أن تكون غريبةً تملأها النظرات والرغبات الخجولة واللمسات المقتضبة والرسائل المضرّجة بأحمر القلوب وأسود الحبر وأخضر الوعود...

حتى كان ذلك اليوم الذي استيقظتُ في صباحه على إحساسٍ غريبٍ جديدٍ.... كان ذلك يوم عيد ميلادي السابع عشر حين نظرتُ إلى تلك الفتاة في المرآة فسمعتها تقول لي كلاماً جديداً: ماذا تريدين يا قمر؟ أن تحبي هشام وتقضي بقية حياتك معه.. أن

تكوني بطلة في إحدى الروايات التي تقرأينها فتعيشي مثل أم هشام في منزلٍ تحت الأرض أو فوق السطح تتجمدين من البرد شتاءً وتحترقين في رطوبة الصيف؟ تريدين أن تتزوجي فلسطينياً وتنجبي منه أولاداً بلا حقوق ولا ضمانات؟ أتريدين أولاداً تحملينهم حين يمرضون لتنتظروا معاً على أبواب مستوصفات الأونروا؟ استيقظي أيتها البلهاء... فهذا الوجه الجميل لم يخلق ليحيا هكذا... وهذا الذكاء الذي يشع من تفاصيل وجهك لم يمنح لك لتدوسيه باسم الحب والأحلام المراهقة... ألا تريدين أن يتعلم أولادك في مدرسة خاصة كتلك التي تمرين أمامها وتغبطين تلامذتها من أبناء الميسورين وتتحسرين على نفسك... ألا تريدين لابنتك أن تسكن في تلك البناية الراقية في عبرا، أو على الكورنيش البحريّ حيث تستطيعين أن تري من شرفتها بساتين الحامض والموز وصفحة البحر معاً؟

إلى الجحيم إذاً أيها الحب....

إلى الجحيم بعينيك اللامعتين كبحيرة من العسل الأسود....

إلى الجحيم بحضنك الدافىء المغري إن كنت سأدفن فيه ميتةً..

أيّها الحبّ، لا أريدك إن كنت ستمنحني أجنحةً رائعة الألوان غير صالحةٍ للطيران أبعد من سطوح مباني حارتنا..

عذراً فأنت لا تصلح لأكثر من حلمٍ لذيذٍ قد أستمتع بتذكره في أوقات خلوتي مع نفسي في المستقبل البرّاق الذي ينتظرني خارج هذه الجدران...

أذكر جيداً تلك اللحظة: حين خرجت من المنزل في الوقت الذي كنت أخرج فيه كل يوم إلى مدرستي، ومشيت في الطريق نفسها... أذكر كيف انتظرني في المكان نفسه، وابتسم الابتسامة نفسها، وكيف وقعت زهرة الغاردينيا من يده لأني لم ألتقطها بكفي المغلقة.. أذكر كيف أنني حينذاك لم أرمقه بالنظرة نفسها ولا صافحت غمازتي ابتسامته، لأنني ببساطة ومنذ ذلك الوقت، لم أعد أنا أعرف نفسي....

«بعدك على بالي... يا قمر الحلوين» يهب صوت فيروز كنسمة رقيقة من مكان ما، من حولي أو ربما من مكان ما في داخلي، لست أدري بصراحة!

أتجاهله وأقرر أن أسير باتجاه الكورنيش البحري لأتناول قهوتي برفقة البحر... مكاني المفضل...

أمشي ببطء في الشوارع التي لاتزال تستنشق طراوة هواء الصبح... ذاك الهواء الشهي البارد الصافي الذي لم تلوثه بعد أنفاس البشر ولهاثهم وراء الدنيا. أشعر ببردٍ خفيفٍ فأعانق نفسي بيدين فارغتين... أستل نظاراتي الشمسية وأضعها على عيني متأكدة أن من سيراني سيضحك مني ساخراً... نظارات شمسية عند شروق الشمس؟ أو في هذه الأزقة؟ أتوقع أن أسمع شاباً يقول: نيالن الناس «الكلاس» عالصبح... أو مراهقاً يصفر صفرة طويلة ويسخر قائلاً: دخيل عويناتك قبل الضو!! ممن أتخفّى؟ من الناس أو من نفسي؟ وممّ أختبىء خلف هذه النظارات؟ أو أظن أنني إن غطيتُ عيني فلن يعرفني أحد؟

الحركة ليست خفيفة.... أشخاص يتحركون في كل اتجاه... هنا الناس يستيقظون باكراً، غالباً بعد الفجر بقليل، صحيح أنهم يستيقظون في الغالب متأففين من يومٍ شاق ينتظرهم أو من نوم لم يكفهم... بعضهم للصلاة، منهم بحكم الواجب، ومنهم بحكم العادة أو بحكم الإيمان الحقيقي...

أنا أيضاً كنت أصلّي... كنت أصلّي طالبةً رضى الله الذي تعلمت أنه منبع كل النعم وأنه القادر على منحنا كل شيء إن أرضيناه، ومع أن صلاتي كانت لسببٍ محدد فقد كنت أصلّي

بصدق... بصدق المحتاج إلى سند حقيقي وملجأ... وبعد الصلاة كنت أراجع دروسي قبل الاستعداد للخروج إلى المدرسة، أراجع دروسي التي أكون أساساً قد حفظتها عن ظهر قلب، لكن متعتي الكبرى كانت في الدرس... كنت مدمنة درسٍ وقراءة... أدرس بشغف وجدّ وأطالع الكتب كأني أفترسها... أنهل من العلم بنهم شديد لدرجة أن أمي وأهل الحي كانوا يسمونني: حمارة درس تندراً لأنني كنت أدرس طوال الوقت... كانوا يسخرون من بكائي أيام العطلات شوقاً إلى المدرسة ومن كوني مدمنةً رائحة الورق والطبشور، وكان هذا صحيحاً إلى حد بعيد! فالمدرسة كانت ملجئي وملاذي وأول الطريق التي ستحملني إلى المستقبل الذي أخطط له... لأن هذا كان المجال الوحيد الذي يمكن أن أستثمر فيه طاقاتي ليفتح لي أبواب الغد المشرق...

كان دائماً في بالي بيت شعر ذكرته يوماً أمامي معلمة اللغة العربية:

العلم يرفع بيتاً لا عماد له   والجهل يهدم بيت العز والشرف

وأنا، بكل عنف المحرومين من الأمان، كنت أريد أن يرتفع بيتي ويصبح له أعمدةٌ وجدران وألوان زهرية وزرقاء.... كنت أقرأ بجوع... ألتهم الكتب ثم أهضمها وأحولها إلى خلاصات صغيرة

أرتبها في زوايا عقلي وذاكرتي لأستعملها حسب الحاجة أو الرغبة في ذلك.. كانت خطتي أن أكون مع الجمال والذكاء، مثقفةً ناجحةً وسعيدة.. أن أعيش وأن أحِب وأن أحَب...

أما كيف أحب، ومن أحب، فهذا هو الموضوع. أحب برأسي وطموحي وأحلامي وحدْسي وقلبي معاً... أحب من سيشرّع أمامي مداخل العالم البعيد الذي كنت أدرك جيداً أنني أستحقه وأنني خلقتُ لأكون واحداً من ساكنيه...

يا ألله... رائحة المناقيش تملأ الطريق، وصوت المطرقة التي يدق بها أبو كمال الفوّال الثوم يغريني بتناول صحن من الفول المدمّس بالحامض «والأبوصفير» والكزبرة... أبلع ريقي بحسرةٍ وأنا أتخيل لقمة الفول مع زيت الزيتون والنعناع الأخضر في حلقي، وأتأسف على مدى خلوّ عالمي الذي اخترته بإرادتي من كل هذه الروائح والأصوات والمذاقات...

كم أني غريبة عنه ذاكَ العالم... حتى عن شارعي الذي أقطن فيه لنظافته المستفزّة وهدوئه الشديد وروائحه الحياديّة وألوانه الموحّدة...

أبتسم بسخرية حين أتذكر جارنا المسكين الذي كاد يطرد من البناية لتركيبه على الشرفة ستائر يختلف لونها عن لون ستائر بقية

الطوابق، والأوصاف التي أطلقت عليه حينذاك من قليل الذوق إلى قروي متخلّف إلى محدث نعمة لا تليق به!! كم هو مملّ فعلاً أن يُلزم الجميع بأن يكونوا على الذائقة والمزاج نفسيهما للحفاظ على الترتيب وفقاً لمعنىً سائدٍ متعارفٍ عليه في مجتمعٍ ما...

أقترب من الفرن، لا أستطيع المقاومة أكثر! ألقي صباح الخير بسرعةٍ فيرد عليّ الرجل الذي ينقّط العرق من أطراف وجهه بكل محبةٍ وترحيبٍ: صباح الخيرات والأنوار...

تباً لتلك «البونجور» المقتضبة التي تبث البرد في شرايين صباحاتي اليومية...

- زعتر أو جبنة؟ لدينا أيضاً كشك ولحم بعجين للحلوين...

- زعتر لو سمحت..

يأتيني بالمنقوشة السمينة السمراء... تلتهمها عيناي وخلايا الشم عندي بنهم...

- «عندك بونجوس هرم؟» دائماً، كانت منقوشة الزعتر وعلبة العصير الهرمية الشكل فطوري المفضل.

- أكيد عندي..

أعطيه ورقة الخمسين ألف ليرة.

- ألا أجد معك أصغر يا ابنتي؟

- لا والله أعتذر

- بسيطة خليها علينا هذه المرة.

أقبل عرضه بفرح... فرحٍ غبيّ يشبه شعوري أيام الجامعة حين كنت أوفّر على نفسي مبلغاً تافهاً كأن أختار المشي مثلاً بدل ركوب السرفيس.. أبتعد وأنا أسمع صوت الرجل ذي الشارب الكثيف يقول: انتبهي يا عمي.. سخنة كتير... لا تحرقي لسانك...

لا أدري كيف التهمتُ المنقوشة رغم سخونتها الشديدة وكيف شربت علبة البونجوس في هذا الوقت القصير... ما كل هذا الجوع؟؟

يسطح في وجهي نورٌ يعلن الخروج من منطقة الأزقة إلى الأفق المفتوح.. إلى البحر... يلفحني الهواء المالح الذي أعشقه وأنا أبتلع آخر لقمة من منقوشة الزعتر وأركض بلا وعي..

هذا الأزرق الحنون، تناديني الأشباح العملاقة التي تتطاير حوله، وتتمطّى رماله المدلّلة طاردةً عن عيونها طيف النعاس لتستقبل أقدام الناس المشتاقين إليها، تدهمني دمعة خجولة صافية كصفاء هذا الصباح الدافىء...

دمعة سببها شعوري بفرحة طفولية لم أشعر بمثلها منذ زمنٍ طويل...

ركضتُ بجنون، خلعتُ حذائي وتسلقتُ الدرابزين الحديدي الصدىء الذي اعتدتُ أن أتسلّقه صغيرةً، وحين قفزتُ نحو الرمال، وما إن مسّت قدماي العاريتان دفء الرمل، حتى انخرطتُ في بكاءٍ حارٍ مرير...

كم من الذكريات صنعتها الحياة لي على هذه الرمال... نزهاتي طفلة مع أبي الذي لم يكن باستطاعته اصطحابي إلى أبعد من هذا المكان. أحاديثنا الطويلة عن القرية البعيدة وحلمه أن يشيّد له بيتاً هناك على التلّة التي يستطيع منها أن يراقب شروق الشمس كأنها تشرق له وحده.. وعوده بأن يشتري سيارةً صغيرةً يحملني فيها مع أمي إلى حيث أريد... وصفي للبزة الرياضية ذات الماركة المشهورة التي أريد أن يشتريها لي لأرتديها في نزهاتنا المقبلة على الشاطىء... تفاصيل البزة التي لم أمتلكها قط... إسراري لصديقتي عن قصة حبي التي بدأت تولد بعيداً عن أعين صيدا... فرحتي العارمة بأن عقلي أحبّ حساماً بمباركة قلبي... سعادتي الطاغية ذلك اليوم، وأنا أخبر الصديقة نفسها بأن حساماً آتٍ يومذاك ليخطبني... اعتزازي بأنني أحببت «كما يجب» و«من يجب» أن

أحب، وفخري بقمر الجميلة الذكية التي استطاعت أن تجذب حساماً شقيق أستاذتها في الجامعة، حسام الجميل الناضج الرزين، الناجح الطموح، والأهم من ذلك، حسام الآتي من العالم الذي كنت لا أزال أراه من خلف زجاج أفكاري، بانتظار أن يفتح حسام النافذة التي ستنقلني مباشرة إلى وسطه..

حسام الذي عدا كونه فارس الأحلام المرسومة بدقة، عرف كيف يجذبني تماماً إليه... برومنسيته، وحبه الجارف، وأسلوبه المميز... حسام الذي وعدني يوماً أن يكون ضلعي المكسور وسقفي المثقوب وبيتي المخلّع الأبواب والشبابيك.. حينذاك كنت أشعر أني على قاب حلمين أو أدنى من الحياة التي أنتظرها... أتأمل أوعية الألوان الزاهية المقفلة لأبدأ تلوين قوس قزح عمري الذي انتظر طويلاً ليرفل بالألوان والأفراح... كم كان ذلك منذ زمن بعيد، من عمر آخر، قبل أن أصبح الآن الطفلة العجوز التي تبحث بين ركام قش خيباتها عن خيطٍ وإبرةٍ ترتق بهما ثقوب قوس قزحها المهترىء التي يتسرّب من بينها عمرها كله...

وتزوجته.. وتزينت أناملي ومعصمي بالماس، وانتقلت من بيت أمي إلى شقةٍ في أرقى شوارع العاصمة.

أنا قمر، التي خنقت الحياة نصف روحها ونصف كيانها قبل

أن تتجاوز العاشرة بقليل.. التي كانت مضطرةً إلى صعود خمسة طوابق لترى وجه الشمس مباشرةً، والتي أمّن لها تفوّقها منحةً تعليميةً من إحدى الجمعيّات التي تخدم الأيتام المتفوقين تبعاً لطائفتهم لتحقق حلمها في دراسة الصحافة في جامعةٍ خاصّةٍ، ودخول عالم بيروت المدينة السحريّة التي لم تزرها قط، تتزوّج من أفضل الشباب في بيروت، وتسكن في أرقى شوارعها.

أذكر يوم عرسي الذي كان الغصّة الأولى في زواجي... لم يُرد حسام أن أدعو أحداً من الجيران أو الأصدقاء الذين كانوا عائلتي الوحيدة بعد وفاة جدي وتخلّي أعمامي عنّا.. كانت حجّته أن العرس صغير وأن لا أحد مدعوّ من خارج العائلة.. وبالرغم من معرفتي للسبب الحقيقي المتعلّق بالمظاهر الاجتماعية رضخت... ربما لإرضائه، وربما – وعلى الأرجح – لعدم رغبتي في حضور من لا يشبهون عالمي الجديد الذي أدخله... يومئذ، خرجتُ من بيتنا المتواضع دون الزّفة التي كنت أحلُم بها... فالسيارة التي أقلّتني إلى زفافي لم تكن تستطيع اجتياز الحارات الضيّقة للوصول إلى منزلنا.. ولم يكن بالإمكان أن تسير نساء عائلة حسام بالكعوب المروّسة وفساتينهن المرصعة فوق باطون تلك الأزقة... كنت أنتظر الـ «ميسد كول» من حسام لأخرج من المنزل، متأبّطة ذراع

أمي ذات الابتسامة المخنوقة بدموع القهر والإحراج من أحبّائها الجيران الذين كانوا على جانبي الطريق يزغردون لي ويرشونني بالأرزّ والملبّس... لم أعرف حينئذ سبب دموعي الغزيرة، وذلك الألم الحارق في قلبي... أكنت أفتقد وجود أبي كما كنت أظن؟ أم كنت أشعر بوجع الانسلاخ من الرحم التي تربيتُ فيها واحتضنتني وأمدتني بكل أسباب الحياة والاستمرار... كنت أكمل القصة التي بدأتها، على طريقتي، أنا عروسٌ إذاً يجب أن أفرح... تزوجت رجلاً عشق شخصيتي المميزة؛ إذاً يجب أن أفتخر بذلك وأفرح... ينتظرُني مستقبلٌ مريحٌ وأضواءٌ وهواءٌ منعش يرفل برسائل البحر الزرقاء وموسيقى... فلماذا لا أفرح.؟؟...

كانت تلك المرة الأخيرة التي أخرج منها من تلك الأزقّة، بعدها طلب مني حسام عدم زيارة المنطقة وحدي حرصاً عليّ كما كان يقول، وخصوصاً بعد أن استأجر لأمي بيتاً في إحدى المناطق القريبة من منزلي الجديد.

كان انتقال أمي من صيدا للسكن في بيروت، أول مسمارٍ دقّ في نعشها، ومع أني حاولت أن أقنعها بأنها غير مُلزمة بترك بيتها لتسكن قريباً مني وأنها تستطيع زيارتي متى شاءت، لكنها قبلت عرض صهرها مرغمةً حزينةً، خوفاً من أن يسبب لي رفضها

أي مشاكل، أو لتبقى قريبةً منّي أنا وحيدتها وكلّ من تبقّى لها في الدّنيا...

تزوجت... ولكن ليلة زواجي لم تكن «ليلتي» وحلم حياتي كما كنت أظن... بل كانت عنق الزجاجة الذي علقت فيه ولاأزال عالقة...

لم يكن المشهد الأول فيها كما كتبته في قصتي، لم يحملني حسام من باب المنزل إلى غرفة النوم، ولم يقبّل يدي وقدميّ كما في الأفلام التي تجمعت أبخرتها في رأسي، كل ما فعله أنه سبقني إلى غرفة النوم المترفة الأناقة، أجلسني بحبٍ وحنانٍ على حافة السرير، وناولني قرصاً مهدئاً! كان قد استشار صديقه الطبيب النفسي في أصول ليلة الدخلة، وبدأ يطبّق نصيحته التي بنتيجتها سأتحوّل إلى عروسٍ طيّعةٍ لينةٍ دون أن أعاني تشنج الحياء والخجل والموروثات الاجتماعية ورهاب الاتصال الأول في عقل كل فتاة شرقية. وما إن حضنني وقبلني على جبيني بأبوّةٍ قائلاً: لا تخافي ولا تتوتري... أنا إلى جانبك الآن، حتى ثار فيّ بركان كل العقد النفسية المتراكمة داخلي منذ يتمي الأوّل، وعلق معي في عنق الزجاجة نفسها، وبدأ يخنقني بدخان حممه...

تلك اللحظة اللعينة شكّت القطبة الأولى في كفني.. الذي

اتّضح لي بعدها أنّي كنت أحمله فوق أيّ ثيابٍ ترتديها روحي بانتظار اكتمال خياطته وتجهيزه..

اكتشفتُ فجأةً أني غير مستعدّة! نعم غير مستعدّة! ليس هذا ما كنت أبحث عنه في علاقتي بحسام، ليس علاقةً جسدية بين رجل وامرأته... كنتُ إنسانةً ناقصةً بانتظار الاكتمال، اكتمال كل النواقص التي قضمها القدر وظروفي.. يتمي، فقري، رفضي لواقع لا يعجبني.. حسام كان ذلك الجسر الذي كان عليّ عبوره نحو الاكتمال، لأصبح بعدها إنسانةً تشبه ما طمحت وأردت بل واحتجت أن أكون عليه.. إنسانةً جاهزةً لعلاقة حبٍّ صحيحةٍ غير معتلّةٍ وبالتالي لعلاقةٍ زوجيةٍ كاملة... وللأسف، كانت هذه الحقيقة كارثية بكل المقاييس! إذ كان مستحيلاً عليّ أن يتم الأمران في العلاقة نفسها ومع الشخص نفسه وفي اللحظة نفسها...

حسام، بحنانه واحتضانه واحتوائه والأمان الذي كان يرمز له والأحلام المبتورة التي كانت ستكتمل على يديه، كنتُ أريده بالدرجة الأولى أن يكون أبي بالمعنى المجازي للكلمة... أبي بدلالات الأبوّة، أن يكون فعلاً ضلعي الذي انكسر، وسقفي الذي انهدم ذات مصيبةٍ وشبابيك بيتي التي تخلّعت سامحةً بمرور كل أنواع العواصف نحو روحي... كان يجب أن يوجد شخصٌ في

حياتي يمنحني كل هذه المعاني، وحينئذ فقط، كنت سأصبح بعدها إنسانةً مؤهلةً لأحبه كشخص آخر... لأحبّه من جديد... لأحبّه بطريقةٍ أخرى، بمباركة الشخص الأوّل الذي جعلني مكتملةً وصالحةً لعيش هذا الحب!

اكتشفنا معاً، أنا وحسام، أنني أعاني فصاماً عاطفياً عنيفاً... وحين فهم مصيبة أنني أريده شخصين أحبهما معاً، كان ذلك مستحيلاً عليه بالتأكيد!!

هو، كان إنساناً طبيعياً، أحبني حبّاً طبيعياً وأراد أن يعيش معي حياةً طبيعيةً.... وأنا، كنتُ إنسانةً غير طبيعيةٍ ذات عقد عميقة واهتزازات عنيفة... اكتشفنا ذلك معاً ومتأخراً جداً... كنت أريد من الزواج تحقيق كل ما أحتاج إليه.. السند المتمثل بالوجود الأبوي... وما كنتُ أنتظره من الحياة وأنا أغزل خيوط قصتي: حبيب كامل الأوصاف، يحبني وأعشقه... وحين أحببتُ حساماً وجدتُ فيه كل ما أتمناه.. فامتلاكه لعناصر القوة من مركز ومال وشخصيته القوية التي احتضنتني جعلاني أجد فيه السند والأمان اللذين كنتُ مريضةً بعدم وجودهما، وحبه لي جعلني أعشقه فعلاً كرجل، وكزوج لمستقبلٍ يليق بآمالي وكأب لأولادٍ أحلمُ بإنجابهم، وكشريك في حياة على قدر أحلامي... كيف لم أشعر بهذا الصراع العجيب

الذي كان يعتمل في داخلي، وكيف أوصلني إلى الاحتراق بنتائجه المدمّرة؟ صراعٌ جعلني مشلولةً تماماً، عاجزةً عن أن أختار أيّ الشخصين أريد فعلاً... ولم يكن ذلك بإرادتي، فأحدهما كان عليه أن يسبق الآخر، أو ربما أحدهما كان عليه أن يقتل الآخر كي يعيش وحيداً في عالمي وأعيش أنا أيضاً.. وحسام المسكين، الذي اختار زوجته على أساس الحب رغم كونه شخصية عملية منهجية، فقد كان اختياره مدعّماً بصفات شكلية وشخصية وفكرية أتمتع بها...

وصبر عليّ حسام، ظن أنها ليلةٌ وستمرّ وأن الواقع سيغلب الأحلام.. ثم تحمل رفضي وصدّي وتحولي إلى صخرةٍ صمّاء عند اقترابه مني...

انتظر أن أتغلّب على مشاعري المتناقضة التي تلتهمني، وظن أنه بصبره وحنانه يساعدني... انتظر في البدء متعاطفاً ثم متفهماً... ثم مندهشاً من عنادي وغباوتي العاطفية كما صار يسمّيها... ثم مستنكراً عدم تجاوبي مع عشقه رغم ادعائي بأني مغرمةٌ به كل هذه الفترة... حتى انتهى به الأمر رافضاً مشمئزاً ممّا سمّاه مرضاً نفسياً خبيثاً عصيّاً على أن يتفهمه أكثر... كانت قد مرّت بضعة شهور من العذاب لكلينا... أشهرٌ تخللتها محاولاتٌ باللين والإغراء وأخرى باستعمال القوة، وكلّها باءت بالفشل...

وبعد محادثاتٍ طويلة عريضةٍ ومناقشات عميقةٍ وتحليلات عويصةٍ واعترافات متبادلة ورفض قاطع مني لزيارة طبيب نفسي يمكن أن يعالجني، أصابنا اليأس والاستسلام للأمر الواقع... لن تنجح علاقتنا معاً.. توقف هو عن المحاولة وتوقفتُ أنا تماماً عن التفكير والتحليل حتى أنّ الإحساس بالذنب في داخلي تعطل تماماً وحَلّ مكانه فراغٌ قاتلٌ وضياع حقيقيّ... وعمّ بيننا السكون الخالي من أي عمقٍ أو أبعاد... وبدأنا جدياً التفكير في الانفصال...

وحين شارفنا اتخاذ قرارالمباشرة بمعاملات الطلاق، توفيت أمي، توفيت بمرض خبيث لم يعلن نفسه يوماً، ورغم أني لم أخبرها قط بما كان يجري في حياتي الزوجية، كنت أشعر أنها تعرف كل شيء... تشعر أن الأمور ليست جيدة... أذكر المرة الأخيرة التي زرتها فيها في منزلها، قصدتها صباحاً لمشاركتها في فنجان القهوة، يومئذ جلسنا على شرفتها التي ملأتها بأحواض الورود والنباتات، قطفت زرّ غاردينيا ووضعته على صحن فنجان قهوتي مبتسمةً، وأصرّت على أن أشرب فنجاناً من ماء زمزم أحضرته لها جارتها من صيدا عند عودتها من الحج... كانت أمي حزينة، أخبرتني بزيارة أم نزيه لها وكيف أخبرتها عن الحارة، ومن تزوّجت ابنة الحلّاق وماذا أنجبت ابنة الأستاذ الفلسطيني العامل في الأونروا...

وأسرّت لي أنها تريد الذهاب إلى الحجّ في السنة المقبلة وأنها كانت تدّخر شهرياً مبلغاً من راتب أبي وأن المبلغ كاد يصبح جاهزاً... وبكت بحرقةٍ وهي تخبرني أن البيت الذي كنا نسكن فيه بالإيجار معروضٌ للبيع، وأن مؤسسة تُعنى بترميم البيوت القديمة يمكن أن تشتريه قريباً.. قالت إنها تركت في ذلك المنزل نصف قلبها ونصف روحها وكل عمرها وأكثر... وبكيتُ أيضاً وأنا أعدها أنني سأشتري لها المنزل القديم لتزوره حين تشاء.. رفضت بشدةٍ لأنها لا تريد أن يدفع زوجي ثمن المنزل، فطمأنتها أن سعر المنزل زهيدٌ وأنني سأبيع جواهري الماسيّة لإتمام هذه العملية... وهكذا كان... وكلّفتُ سمساراً أتم الصفقة على عجل بعد أن تبين أنّ قصة المؤسسة الراغبة في الشراء ليست إلا إشاعة من صاحب المنزل لتسريع عملية البيع...

وقّعت أمي عقد شراء المنزل بفرحةٍ لا توصف، كانت كصبيةٍ صغيرةٍ توقّع عقد تحقيق كل أحلامها القديمة والجديدة.. أحلامها المؤجلة دوماً... وبعد أن فرغنا من توقيع العقد، قدتُ بها السيارة مسافة ثلاث ساعات نحو قبر أبي، وحين وضعت كفّها على البلاطة البيضاء الناعمة التي نُقش عليها اسم أبي وتاريخ موته، كانت تمسّدها كأنها تمسّد شعره الأسود وتقول: ها قد أصبح لنا بيتٌ يا

حبيبي... صار لنا ذاك البيت الذي شهد أيام حبنا وسعادتنا، وكل الزوايا التي حملت حكايانا صارت ملكنا إلى الأبد، تلك الأرض التي استقبلت أولى دعسات قمر، وتلك الجدران التي احتضنت أفراحنا وخيباتنا وسمعت أنيني وشعرت بوجع وحدتي بعد أن رحلت... تلك الجدران وذلك السقف، حضنتني وآوتني بعد أن صرتُ وحيدة بدونك... بعد أن خرجت على ظهرك من ذلك الباب للمرة الأخيرة...

توفيت أمي بعد أيام قليلة، وأودعتها حضن مدينتها التي أحبّت مع أنني كنت أرغب أن أُسكنها قبراً مجاوراً لقبر أبي، ليكملا أحاديثهما الأخيرة التي قُطعت عنوةً منذ سنواتٍ طويلة.

كان لموت أمي تأثير قوي في حسام، أوقف كل معاملات الطلاق، لم يشأ أن يتركني وحيدةً بعد أن خسرت الشخص الوحيد الذي كان يربطني بالعالم... وعقدنا ضمنياً الصفقة التالية: أبقى على ذمته، زوجةً شكليةً، وأعمل معه في الشركة التي يمتلكها وبهذا يستغل مهاراتي العلمية والشخصية في مجالٍ آخر، فإن لم أنفعه زوجة وشريكة، فمن المؤكد أني سأنفعه مديرة علاقات عامة ناجحة... وبهذا أيضاً يضمن بقائي تحت إدارته وتحت نظره.ربما كان يريد بينه وبين نفسه أن يجد حجةً قوية لبقائي في حياته، أو ليقنع

نفسه أو ربما يقنعني أنا نفسي بضرورة بقائي... أما أنا، فارتحتُ جداً لهذا الوضع، للأسباب نفسها التي كانت لديه، لإيجاد سبب يبرّر بقائي في حياته، وكذلك لطمأنته فعلاً بأنني امرأةٌ بلا رغبات.. امرأة غير طبيعية معه كما مع الجميع.. كنت أشعر أنني أصبحتُ امرأة من زجاج، تمثالاً جميلاً سهل الكسر والتهشم، وأفضل ما يمكن أن يحميني هو أن أُحفَظ في صالة عرضٍ أنيقةٍ في حمى أيد أمينةٍ، خصوصاً بعد موت أمي.... هذه الفاجعة التي تقبلتها باستسلامٍ عجيبٍ غير متوقع، كأني اعتبرتُ موتها تتمةً لموت أبي وتتويجاً ليتمي المستمرّ ولأحزاني المتتالية...

وكنتُ أزداد حبّاً لحسام، ذلك الحبّ المعقد... حب الطفل لشخص يهتم به ويوفر له كل ما يسعده... حبّ الضعيف لمن قوّاه، حب الممتنّ لصاحب فضلٍ عليه، وحب الخائف للأمان...

وكذلك كنتُ أحبّه حب المرأة للرجل! الحب الحقيقي الأفلاطوني النقيّ كأنه وضع في مصفاةٍ دقيقةٍ نقّته من أي رغباتٍ جسديّة...

حتى كان ذلك اليوم الذي أتى فيه حسام وقد جنّ جنونه... كنت قد نسيت حساب الفايسبوك خاصتي مفتوحاً على حاسوب العمل وخطر له أن يتفقّده، وإذ به يجد رسالةً من صديق قديم من أيام

الدراسة.... كانت الرسالة موجودة في الإنبوكس منذ أكثر من سنةٍ ونسيتُ أن أمسحها بعد أن ألغيتُ صاحبها من قائمة أصدقائي... والسبب الوحيد لعدم مسحها كان عدم اكتراثي لمحتواها، وعدم اعتبارها موجودة أصلاً! أتى كالثور الهائج، فاقداً اتّزانه وكل مزاياه كرجلٍ راقٍ ومتحضرٍ.. قال كلاماً لم أسمعه منه في عز نوبات جنونه وغضبه مني، رغم كل الذي مررنا به من ظروف...

«أتظنين أنك تستطيعين التلاعب بي؟ تمثلين معي دور الراهبة المعقدة، وتستمتعين بكلام الغزل والغرام من غيري؟».

- أنت مخطىء تماماً... لقد فهمتَ الموضوع بطريقة خاطئة...

- يحلم بك منذ أول يوم في الجامعة... يحلم بتقبيلك ولو لمرةٍ واحدةٍ؟... ماذا حدث بعد هذه الرسالة أخبريني؟!!!

- لم يحدث أي شيء... لم أرد عليه حتى... لقد ألغيته من قائمة أصدقائي آنذاك...

ولم يصدّقني.... أو أنه صدّقني لكنه كان بحاجة إلى أي حادثٍ يفجرّ بسببه كل الغضب المحتقن داخله... هجم عليّ، وضربني وبعد أن كدتُ أغيب عن الوعي من عنفه المفاجىء استطاع أن يأخذ

مني ما لم أمكّنه منه منذ بدء زواجنا.. وكانت المرّة الوحيدة التي التقى فيها جسدانا... ومن يومها، صرتُ امرأة «متزوجة» فعلياً....

بعدها.. حلّ بيننا سلامٌ غريب... سلام فارغٌ ساكنٌ... حاولتُ كثيراً منذ تلك الحادثة أن نتحاور.. وبعدها... حاولتُ كثيراً أن أُغريه... كانت تلك الحادثة العاصفة التي فجّرت السّد... ذلك السّد الذي بنته ظروف حياتي حجراً حجراً... وكأني كنتُ أنتظر دماره... كنتُ أنتظر أن تجرفني تلك السيول... وهكذا حدث... المصيبة أن السيول كانت تتفجر داخل نفسي أنا.... أما حسام، فقد أصابه الخرس الرهيب....

صار يُعاملني كأنني غير موجودة... كأنه كرهني... كرهني أو كره الإنسان الذي صاره بسببي... لم يكن حسام يتخيل أن يفعل ما فعله معي ذات يوم... كان إنساناً راقياً، متزناً وعقلانياً.. وأنا قُدته إلى الجنون...

ظننتُ أنها مرحلةٌ ستمرّ، وسنبدأ بعدها حياة مختلفة، حياة جميلة كتلك التي رسمتها وخططتُ لها، سنصبح أنا وحسام زوجين سعيدين عاشقين، وسننجب أولاداً يشبهون الأطفال الذين حلمتُ بهم: صبيّ أسمر ذو عينين سوداوين، وفتاة ذات عينين عسليتين وشعر كستنائي ناعم... لا ليست فتاةً واحدة، بل

فتاتين ليكون لابنتي أخت... لطالما تمنيتُ لو كان لي أختٌ، ننام في السرير نفسه ونلعب الألعاب نفسها ونتبادل الفساتين وأدوات المكياج والأسرار والحكايا،نحوك الذكريات قطبةً قطبةً، لنرتدي دفئها حين نكبر وتغرق أيامنا في الصقيع...

كنتُ أهيئ نفسي لهذه الحياة المقبلة بكل أفراحها، وأحاول كثيراً التقرب من حسام: أطبخ له بنفسي، أتزيّن له كثيراً، أجتهد كثيراً في عملي في شركته كي يزداد إعجاباً وتعلّقاً بي...وليلاً، أعانقه وأقبّله، ولا أقبل أن أنام إلا في حضنه... منتظرة أن نعيش علاقة ممتعة يرغب فيها كلانا...

إلى أن أتى يومٌ أصابني فيه نزف مفاجىء، نقلني في إثره حسام إلى المستشفى ليُعلن لنا الطبيب أنها حالة إجهاض حملٍ لم أعلم به من قبل... حمل أعلن انتهاؤه وجوده، وأخبرني موته أنني كنتُ على وشك البدء بصفحةٍ من أجمل صفحات حياتي قبل أن يملأها الدمُ ويكسوها السواد... يومئذ لم أشعر قط بحزن حُسام ولا شعرتُ بأسفه... كان هادئاً بشكل مخيف كعادته في الفترة الأخيرة... كل ما فعله كان أن عانقني وأنا أبكي، عانقني بعينين باردتين لا غيم فيهما ولا مطر... عينين عرفتُ لاحقاً أن خلف برودتهما تختبىء شمسٌ جديدةٌ أشرقت في الخفاء بعيداً عن وجودي المكلل بثلجٍ مزعجٍ راكمه صقيع سنواتٍ طويلة...

ورغم كل صدود حسام عني وتجاهله لي، بقيت على يقيني الغبي من حبه لي وبقيت أعيش على أمل بدء الحكاية الجميلة التي انتظرتها طويلاً.

حتى كان ذلك اليوم المشؤوم في حياتي... اليوم الذي قلب الدنيا فوق رأسي... جاء حسام ذات مساءٍ وضمّني إلى صدره تلك الضمة الحنونة التي لم أعد أطيقها منذ صرتُ أريدُ منه ضمةً ذات نكهةٍ أخرى: ضمّة رجل لأنثاه... وقال لي كمن يخاطب طفلةً صغيرةً:

- «قمورتي الحبيبة... لقد اتخذتُ قراراً يجب أن تعلمي به، واعلمي أن هذا الأمر الذي قررته لن يؤثر في حياتك بشكلها المعتاد... أنا سأتزوج...».

ظننته يمتحنني... أو ربما يمزح...أو ربما أيّ شيء ما عدا أنّه يقول الحقيقة!!

- تتزوج؟

- «نعم سأتزوج، وأنت ستبقين هنا في منزلنا في حمى محبتي وبيتي، ووظيفتك في الشركة ستبقى كما هي... لن يتغير عليك أي شيء... سأبقى الأب الذي حلمتِ به والأمان الذي بحثتِ عنه

طوال حياتك قمر... لقد تعذبتُ كثيراً حين وصلتُ إلى هذا القرار، وعانيتُ طويلاً، لقد كاد هذا الوضع يدمرني...

وأنا أحبكِ فعلاً، وأعرف أنكِ تحبينني، لكنّه حبّ لا يصنع زواجاً ولا عائلة..نحن لا نستطيع أن نعيش كزوجين طبيعيين، علاقتنا تهشمت قبل أن تبدأ، ولا يمكن أن نبني من الحطام صرحاً، الحطام يبقى حطاماً، وأنا بحاجة إلى حياة زوجية طبيعية، أن أحِبّ وأُحَبّ. وأن يكون لي أطفال وعائلة، دون مشاكل نائمة تحت الرماد، أو جثث مختبئة تحت الثلوج وأعاصير تكسو وجه الشمس بالكلَف...

سأتزوج المعالجة النفسية التي أنقذتني... ليس لأنها أنقذتني فقط، بل أنا أحبها فعلاً... وهي أيضاً تعشقني.. لقد استطاعت أن تصل بي إلى مرحلة السلام النفسي الذي مكّنني من متابعة حياة شبه عادية مع إنسانة غير عادية مثلك أنت.. أتذكرينها؟ المعالجة النفسية التي رفضت أن ترافقيني إليها؟ ورفضتِ أن تساعدنا على اجتياز محنتنا المهلكة؟ لقد زرتها وحيداً وأزورها منذ سنوات، ومن فترة ليست قصيرة صرتُ أزورها كصديقة ثم من بعدها كحبيبة... هي متعاطفة معك ولا تريد أن تؤذي علاقتنا، وهي لا تمانع وجودك في عالمنا كونها تعرف مدى احتياجك إلي....».

كان يتكلم، وكانت حجارة الكون تتساقط من فوقي دون ضجيج، كان عالمي كلّه يهطل سيولاً خرساء من حولي، وأنا على أمواجها أصعد وأنزل، أنام وأصحو... أدوخ وأدوخ.. ولا أستوعب شيئاً...

إذاً، هو يحبها!؟

إذاً سيتزوجها!

وهو لن يتركني... سيبقيني في عالمهما!! هي متعاطفة معي وكيف لا تتعاطف، ألستُ في نظرها مريضةً نفسياً؟! ألستُ بحاجة إلى التفهم والعاطفة والتعاطف والمساعدة وربما للعلاج؟!

هو خانني إذاً؟ كلا، لم يخنّي! كيف يخونني؟ ومن أنا ليخونني؟ لستُ زوجته أصلاً! بل أنا زوجته بالقوة وزوجته بالعنف...

بدأتُ أصرخ كالمجنونة حين استوعبتُ فعلاً ما قاله... كيف تفعل هذا بي؟ كيف تجرؤ...

- كيف أجرؤ؟! أو تظنين نفسك امرأة؟ أو تفترضين أنك أنثى حقيقيّة؟ أنت مخلوقة غير سويّة، أنت مجموعة من العقد لا أعرف كيف تشابكت في منظومة عجيبةٍ شاذةٍ وكوّنت شخصيتك... أنت

مريضةٌ يا مدام! وأنا حاولتُ كثيراً أن أساعدك لتشفي من مرضك لكني يئست... وما سمحتُ لك بالتلطّي خلف اسمي إلّا رحمةً بك..وتعترضين الآن؟ أنت لست امرأةً وأنا رجلٌ أحتاج إلى امرأة حقيقية في حياتي...

كان ذلك الانفجار الكبير... وكان هذا الحوار الصاخب آخر حوار بيننا قبل أن أحبس نفسي في الغرفة ليلتين طويلتين... الغرفة التي أعدّت قبل الزواج لتكون غرفة الأطفال.... غرفة الطفلة الأولى التي حلمتُ بها كثيراً في لا وعيي.. بين الجدران الزهريّة والفراشات التي تزينها، والمفارش الورديّة التي لم تستعمل قط قبل ذلك حيث حبستُ نفسي... لكن جزءاً خفيّاً مني كان سعيداً... كم حلمتُ بمثل هذه الغرفة في طفولتي؟! كم تلمست أصابعي جلد الأوراق الملونة في القصص وصور الأسرّة الورديّة والبنفسجية على صفحاتها... وكم غبتُ عن الواقع في زيارةٍ خرافيةٍ مشتهاة إلى غرف الفتيات الصغيرات في أفلام الرسوم المتحركة أو حتى في المسلسلات العربية التي أشاهدها برفقة أمي...

يومان كاملان في هذه الغرفة، أنا، وهي.

أنا، المرأة المدمرة المطعونة في حياتها وحلمها.. وهي، الطفلة التي استفاقت بعد نوم عشرين سنة على واقعٍ سحريّ لطالما تمنّته حين كان ترفاً مستحيلاً...

يومان... لم يطرق بابي فيهما إلا الخادمة، تحمل لي الطعام وفناجين القهوة السوداء والسجائر الطويلة اللامعة... أنا، أدخّن في الغرفة السحرية الزهرية، وهي،تسعل منزعجة من دخان سجائري الحمقاء بشقرتها الخادعة.... وكلّما حاولت طردي من غرفتها رفضتُ الخروج إلى الغرفة الأخرى البنيّة المكيّفة التي بمساحة منزل كامل، أو رؤية السرير الذي يتربّع في وسطها ساخراً مني، السرير الذي لم يرَ يوماً عُريي.... ولا ذاق طعم نشوتي!... يومان معها، كانت تحاول فيهما إقناعي بقتل نفسي، أنا الأخرى التي دمّرت مستقبلها،والعودة إلى حضن جدائلها وجواربها الصوفية الدافئة... لكنني كنتُ أؤجّل قتلي إلى موعدٍ آخر.. إنها قصتي وأنا التي أكتبها، وإن كنت قد اخترتُ لها البطل الخطأ، فسأظل أنا بطلتها الوحيدة... ولن أقتل هذه البطلة حتى تمحو كل ما تسببت به من أخطاءٍ شوّهت القصّة وأفشلتها.

يلفح وجهي النسيم المحمل بالرطوبة، كأنه يحاول أن يفتح معي حديثاً ما؟ أو كأنه يذكرني أني هنا، أني ماعُدتُ هناك في ذلك السجن الهرم... على مدى عمري فتحتُ وأقفلتُ في داخلي مئات السجون، لكن مفاتيحها كانت دوماً في جيبي، أو ربما هذا ما كنتُ أظنه دوماً؟ يبدو أنني أكثرتُ من الظنون غير القابلة للصرف واقعياً...

لكنني الآن حرّة..نعم، أنا حرّة... أجلس على رملٍ كسولٍ لم ينفض عنه بعد رائحة النعاس، أستمع إلى نميمة الأمواج الصباحية حول فنجان من الزبد المالح... فوقي غيمةٌ سمينةٌ تعد لأطفالها فطورهم من أبخرة الصباح، ونجمات قليلاتٌ تودع بعضها بعضاً بعد ليلة عملٍ طويلة أراقب المتريضين على الكورنيش والمتنزهين المبكرين، تلفت نظري صبيتان تمارسان رياضة المشي الصباحيّ وأسرح مجدداً مع ذكرياتي البعيدة القريبة...

أرى نفسي من جديد، مراهقة ممتلئة «قليلاً» تتمشى على الكورنيش نفسه، مع صديقة طفولتي رانية، صديقتي منذ صف الحضانة حتى آخر أيام المراهقة تقريباً... أسمعها تسخر من حذائي الرياضيّ ذي الكعب المرتفع نسبياً، وتعايرُني بأني كسرتُ قدميها من التعب من كثرة مشينا ونحن نلفّ أسواق صيدا القديمة أياماً طويلةً لنجد حذاءً رياضياً ذا كعبٍ عالٍ ومريح في الوقت نفسه، وتضحك بصوتٍ مرتفع وهي تصف فرحتي حين وجدت «ضالّتي العزيزة» التي أنقذتني من الإحراج حين أمشي معها هي الطويلة الرشيقة، وأنا القصيرة الممتلئة... كم كانت همومي سخيفةً حينذاك، كأن لا أبدو قصيرةً بالحذاء المسطح الكعب، أو كأن لا أضطر إلى خلعه في مكان مَا كي لاتفوح منه تلك الرائحة الكريهة التي تفوح من القدمين بعد خلع الأحذية الصينية الرخيصة!...

كنتُ أستمتع كثيراً بالمشي السريع صباحاً، والهواء يتصارع مع شعري الطويل والنسيم يغازل وجهي الفائر بملامح المراهقة وبثورها... وكم كنتُ حينئذ أتسلى فعلاً برفقة رانية وطرافتها...

رانية التي كانت تضحك لأي سبب بل تخترع أسباباً لتضحك... كأنها كانت بحاجة إليه.

لاأزال حتى الآن كلما قرأت تلك العبارات التي تصف الناس الذين يضحكون كثيراً بالأكثر حزناً أتذكر رانية...

كانت رانية صديقتي المفضّلة، وجارة الحي الذي أسكنه، وبالرغم من جمالها الظاهر لم تكن تهتم بأيٍّ من أمور الفتيات التقليدية، ولا بمعاكسات الشبان «اللزجين» وفقاً لتعابيرها الغريبة... كانت تسمي نفسها الغصن المقطوع، وهي كانت فعلاً كذلك... توفيت أمها بعد ولادتها بيومين بسبب نزفٍ صاعقٍ لم تستطع حينئذ «الداية» التي ولدتها إيقافه... ولم يخطر لوالد رانية أن ينقل زوجته إلى المستشفى لأن أمه أخبرته أن الطبيب هناك لن يفعل شيئاً أكثر ممّا فعلته الدّاية، وأن العمل بيد الله وحده في مثل هذه الحالات، وأن المستشفيات لا تحسن شيئاً غير سرقة أموال عباد الله... وهكذا، أخذ الله أمانته، ولم يحسن من بقي حياً صون الأمانة الأخرى التي تركتها الأم...

شبّت رانية في منزلها الذي لم يغادره الشتاء يوماً... مع شقيقين يشبهان أباهما بسلبيته وجدةٍ قاسية القلب تجاوزت منذ زمنٍ مرحلة تربية الأطفال وتحمّل شقاوتهم ومزاجهم...

كل ما كانت تقدمه لأحفادها طبخة يومية على ذوقها هي، دون مُراعاةٍ لما يحبون أو ما يشتهون، وصراخ مستمر ليكفّوا عن اللعب وإثارة الضجيج وممارسة طفولتهم! وكبرت رانية، وفي قلبها ذاك العطش الموجع إلى حنان أم ترعاها وكان ذاك العطش يكبر معها ويتعاظم حتى صار جفافاً روحيّاً قاحلاً، وحاجة ملحّةً إلى وجود أنثويّ يملأ حياتها، وجود أنثى حنونٍ تعطّر أيامها بالقبلات وتدفىء عمرها المجدب بسحاب العناق والمشاعر... ودون أن تشعر أو تدرك، تحوّل الظمأ العاطفي إلى شعورٍ كارثي، إلى شغفٍ بالنساء بكل تفاصيلهنّ: المعنوية منها والجسدية...

قد يبدأ الضياع الكبير من تفصيل صغيرٍ تافهٍ أو يبدو تافهاً حين يختلط الملموس بالمحسوس، أو نشتهي الملموس طمعاً في المحسوس، فتنقلب الأمور دون إرادتنا وتوصلنا إلى استغلال المحسوس لإشباع رغبة في الملموس.. وما النفس الإنسانيّة سوى أغوار سحيقة قد نغرق داخلها ونضيع بمجرد تعثر أقدام روحنا بعقدةٍ تبدأ صغيرةً وتكبر لتخنقنا بعد ذلك بأذرعها المتشعبة.

هكذا، تحولت رانية الطفلة المتلهفة على حنان الأم إلى صبيّة لا تستطيع إشباع حاجاتها العاطفيّة إلا مع النساء...

وكنتُ أنا، الفتاة البريئة لا أعرف عن ميولها هذه أي شيء رغم كوني صديقتها المقرّبة، أحكي لها وتحكي لي، ونتبادل الأحلام والهموم وأماني المستقبل... كم كنّا نسخر من أمنيتنا المشتركة لو أنّ أباها تزوج أمي وصرنا شقيقتين! وكم كنّا نضحك ونحن نتخيل أباها ذا الكرش الرجراج مع أمي الفراشة ذات الحجم الضئيل، أو الشجارات المفترضة بين جدتها المجنونة وأمي الكنّة المتخيّلة... وكم كنتُ أحزن حين تقول لي لو تزوج أبوها امرأة أخرى لم تكن لترفض ذلك بل كانت تتمناه، امرأة تحلّ مكان أمها ولو فقط في الأمور اللوجستية البسيطة، وتهتم بها وبأمورها كفتاة... لا أنسى حين أتتني رانية باكيةً خائفةً عندما أتتها الدورة الشهرية للمرة الأولى في حياتها... كم كانت مضطربة وقتئذ لا تعرف ماذا تفعل، أذكر كيف حضنتها أميّ بحنان وبكت وهي تقول: والله مسكين من ليس لديه أم في هذه الدنيا... وعلّمتها أصول التصرف في هذه الحالات وكيف ستتعامل مع طبيعتها الأنثوية طوال حياتها... كم كانت مظلومة رانية وكم ظلمتها الحياة.. مسكينة أنت يا رانية التي صرت شاذّة رغماً عنك لأن جسدك تمرّد عليك ليدافع عن روحك المتألّمة...

غريبة هي الحياة وجائرة في تلاعبها بنا وبمشاعرنا.

ونحن نبحث عمّا نحتاج إليه، قد نقع على ما يشبهه أو حتى ما لاعلاقة له به لكنّه يحقق لنا إشباعاً ما، ولو جزئياً.. فنتعلّق به ظناً أن هذا ما نفتش عنه لأننا ببساطة لم نتعرّف إلى ما نريده بعد، فكيف سنعرفه إن وجدناه؟

لم تكن رانية ضحيّة يُتمها فقط، كانت أيضاً ضحيّة عائلة لم تعرف كيف تحتويها وضحيّة مجتمعٍ مريضٍ نبذها، وأيضاً ضحيّة نساء استغللن ضعفها وحاجتها...

كم كان ذاك اليوم رهيباً بالنسبة إلى مراهقة مثلي لم تتعدّ السادسة عشرة من عمرها... أيكون هذا المقعد الحجري هو نفسه ذاك المقعد الذي كنّا نجلس عليه يومئذ؟ أيكون البائع المتجول الذي اشترينا منه عرانيس الذرة المشويّة وقتئذ لايزال حيّاً حتى الآن يتجوّل بعربته الخشبية والدّست المعدني الضخم وقطرات العرق الأبدية على جبينه ورائحتها المختلطة برائحة الكمون والحامض على الذرة الذهبية؟؟

أذكر أنني كنتُ أستمتع بضحكاتي الأخيرة مع رانية ذلك العصر الربيعيّ البعيد حين اصفرّ لونها فجأة حتى صار يُشبه العرنوس الذي كُنا نقضمه بشهية المراهقين.. فما إن فاح عطر تلك

المرأة الصاخبة الأنوثة، حتى فاحت رائحة النهاية..أرعبني صوت تلك المرأة تنتفض فجأةً وتمطر رانية بأقسى الكلمات: بلا أخلاق.. بلا تربية... منحرفة... إياك أن ألمحك في طريقي بعد اليوم وإلّا سأنسيك حليب أمك الذي رضعته! لا أدري حقّاً حتى الآن ماذا جرى حينئذ.. أذكر فقط رانية التي انفجرت بكاءً تركض بسرعةٍ رهيبةٍ كل الطريق الممتد من الكورنيش إلى بيتها وأنا ألحق بها مرعوبةً دون أن أفهم أي شيء... وفي المنزل، ذلك المنزل الفارغ البارد الذي طالما تخيلته منزل الأشباح المخيفة الذي قرأت عنه في القصص، سمعت منها ما جعل الكون من حولي فجأة معتماً عاصفاً والدنيا ضيقةً وخانقة...: لو كان لي أمٌّ رضعتُ حليبها ما كنتُ أصبحتُ هكذا!! تهدّدني أن تنسيني حليب أمي! أين أمّي؟ وما طعم حليبها؟ أنا أتعذّب يا قمر... أنا أختنق! ما ذنبي إن كنتُ أذوب لهفةً على صدرٍ حنونٍ ألقي رأسي عليه وعلى ذراعين ناعمتين تضمانني بحبّ... ما ذنبي إن كنتُ أموت رغبةً في ذاك الدفء الذي يغمرني في أحضان النساء... النساء اللواتي أتخيلهنّ جميعاً أمّي... ما ذنبي إن صرتُ هكذا رغماً عني..

لم أقل بعد انتهاء عاصفتها أي كلمة، لم آت بأي ردة فعل، كل ما فعلته أني نظرتُ إليها بلومٍ فظيعٍ وبقرفٍ لا إراديّ.. ورحلتُ،

رحلتُ مشمئزّةً كارهةً حزينةً.... حزينة على خسارة صديقتي... كل ما كان يدور في رأسي أنها خدعتني كل هذه السنوات، وأنها غير طبيعية... والأهمّ، أن دورها انتهى في قصتي التي أخطّ كل حرفٍ منها على ذوقي ووفقاً لما يناسبني، والصفحة التي ذُكرت فيها رانية سأمزّقها إلى الأبد... وفعلاً، مزّقتها حينئذ ولكن ليس وحدي...

لم تُنتزع قصة رانية من قصتي فحسب، بل مُزّقت من الحياة كلّها، إذ عرفتُ بعد فترة أنها انتحرت وأن جدتها لم تتقبل العزاء بها لأنها، ووفقاً لمعتقداتها، ماتت كافرةً...

ماذا فعلتُ بنفسي؟ سؤالٌ بدأ يغرز أنيابه في لحم وجودي وأنا أتأمل الرجل السبعيني الذي يطقطق بفناجين القهوة العربية قربي وأحسده على راحة باله وبساطة عيشه رغم هموم الفقر والعمل المرهق... حقاً، ماذا فعلتُ بنفسي؟ بقيت سنواتٍ طويلةً أكتب قصصاً بماء الأحلام غير المرئي، أجلّدها بيقينٍ قوي بأنه سيأتي يومٌ وتتحقق... وأرتبها في مكانٍ فوق روحي بعيداً عن غبار واقعي المسموم بالأحزان الكبرى والأفراح الناقصة دوماً...

ما أنا؟ ومن أنا؟ من كنتُ ومن أصبحت؟ كنتُ طفلة ثم مراهقة تعيش على انتظار ما سيأتي، تحلم به وتخطط له وتنسى أن تعيش واقعها... ثم أصبحتُ امرأةً كسرها ما كانته... مزّقها ما

لم تعشه حين كان يجب أن تعيشه، تحيا على انتظار أن تعود من جديد إلى حيثُ كانت لتعيشه كما يجب! أردتُ أن يكون لي أبٌ غير الذي رحل، ألأني كنتُ أحتاج أن يعود أبي الذي فقدته أم لأني كنتُ أريد أباً غير الذي كان لي ذات طفولة سحيقةٍ، أباً يشبه الزوج الذي اخترته بقوّته وسلطته وعطائه الكريم؟

ثم أردتُ زوجاً قضيتُ نصف عمري في رسم صوره وقياس أبعاد ملامحه وكتابة قصصٍ لا تتحقق، له ومعه؟ وحين امتلكته فعلاً، وكان أجمل مما انتظرتُ، لم أستطع أن أتجاوز حاجزي الأوّل، حاجتي الأولى للاكتمال، للارتفاع إلى مستوى إنسانٍ مكتملٍ جاهزٍ لمنح أحاسيسه وروحه ومن ثم جسده... لكني لم أكتمل قطّ ولم أعش يوماً...

والآن، سوف أعيشُ بالفعل، سأكون للمرة الأولى في حياتي أنا الحقيقيّة... سأعود إلى حيثُ كان يجب أن أبدأ، وسأبدأ من جديد.. صرتُ قوية ما يكفي لأطير دون أجنحة، بعد أن انكسر جناحي الآخر إلى الأبـد... سأخونك يا زوجي كما خنتني... وهل خنتني فعلاً؟ ربما لا، من المؤكد أنها ليست خيانة، لكنك ساعدتني على خيانة نفسي... بإيهامي أنني قويّة، وأنا أزداد ضعفاً! سأريك إن كنتُ امرأةً حقيقيةً أم لا.... سأريك يا زوج المناسبات

السعيدة والصالات المتلألئة، يا رجل الكرافاتات الأنيقة والشعر المصفف بعناية مستفزّة، يا رجل الشارب المخطط بإتقان مملّ، يا رجل اليدين الناعمتين اللتين لم تتقنا العزف على مفاتن جسدي الموصول مباشرةً بقلبي.. سأريك أنك أنت السبب وإن لم تكن السبب الوحيد، فأنت، وبشكل مؤكّد، سببٌ ساعد مباشرةً على إيصالي إلى ما وصلتُ إليه.. قلبي الآن فارغٌ جداً... أسمع نحيب أبوابه ونوافذه المكشوفة على الصقيع... فلتتحطم إذاً هذه الصورة المبتسمة المعلّقة على جدار الحياة والمسمّاة باسمي... هذه المرّة، ستكتب ثعابين الجنون قصتي المقبلة، وسأختار البطل الذي سيعرّفني من جديد إلى المرأة التي قتلتها أنت، أو ربّما قتلتها أنا، بسكينك أنت...

ها أنا في صيدا... حيثُ كانت البداية الأولى... وهنا، في صيدا أيضاً ستكون البداية الجديدة... هذه المدينة التي لم أزرها منذ زمنٍ بعيدٍ... منذ أودعت أمي مقبرتها الوادعة مع وعدٍ بأنني لن أتأخر كثيراً عن مشاركتها في قهوة الصباح مجدداً ذات موتٍ قريب... هنا، حيثُ استيقظتُ من غفوة الرحم على صوتها وهي تدندن أغنيتها السريّة لعشيقها البحر، وهو يقبّل كفيها بشغفٍ كل غروب.. صيدا التي مدّت يديها نحوي دامعة الشوارع، واحتضنتني حين

عُدتُ من مشواري الأخير إلى قريتي، دون من زرعني نطفةً قابلةً للحياة... كم أشعر هنا بالامتلاء... كأني أرى جميع من غادرتهم وغادروني أشباحاً زهريةً حولي على الرمال وبين الصخور، كم أشعر بهم وكأنه لم يرحل منهم أحد! لم يرحلوا إلى أي مكان... كم أشعر أنهم أحياء جداً... أحياء أكثر مني وأكثر من حسام... كل ما في الأمر أن كلّاً منهم غادر إلى غرفته في قصر ذاكرتي الشاهق وأوصد خلفه الباب بانتظار أن أطلبه فيلبّي... كلهم لايزالون هنا... خالتي التي نامت نومتها الأخيرة باكراً، ها هي تطلُّ بروب الصباح القرمزي من فوق سطوح الطفولة، بيدها فنجان قهوةٍ لا يبرد أبداً... وأصدقائي أولئك الذين خرجوا من عالمي كلٌّ من بابٍ مختلفٍ، ها هم يقفزون حولي، ها هم يحضرون كعادتهم كلّ حنينٍ، من خلف هضبة الضباب الأزرق، هذا بأسنان الحليب نصف المتساقطة وذاك بضمادة الجروح على ركبتيه المسودتين، وتلك بشورت الرياضة المدرسي الذي لم يبهت لونه يوماً...

وأمّي، ها هي أمّي بالعباءة المخمليّة النيليّة، ترتديها فوق ثياب النوم كل صباح وتركض بي تحت المطر لتوصلني إلى باص المدرسة... وأيضاً ها هي بثوب النوم القطني المعرّق، تستقبلني كل عصرٍ عائدة من المدرسة بحضنٍ يفوح رائحة طبخٍ وياسمين

وعطرٍ وحبٍّ لم أعرف لونه حتى اليوم... ها هي أمّي هنا، هنا جدّاً، لم تذهب إلى أيّ مكانٍ غير هنا، تحتل الغرفة الأكبر في القصر، تلك اللصيقة بروحي، تحرس كل الأبواب المؤدية إليها، وإليّ...

كلّهم هنا... لم يغادرني أحدٌ منهم....

وهذه التخمة الذاكرية الباذخة العذوبة الشديدة الإيلام، هي نفسها مرضي الذي لم ولن أشفى منه أبداً...

لو تأتي أنت فقط أيضاً يا أبي لتمنحني بعض الذكريات الإضافية، قليلاً منها فقط، فقليلةٌ جداً ذكرياتي معك...

قليلة لدرجةٍ لم تكف زاد الطريق، فأضاعني الجوع وأضعتُ الطريق... لو تأتي مرةً واحدةً، مرةً أخيرة... ببذلتك العسكرية مكتملة، بلا ثقوب وبلا بقع دمٍ لم تفلح كل محاولات أمّي في إزالتها... برائحة العرق الخفيف المختبىء خلف رائحة أوراق الجريدة... لو تأتي مع ذلك الرغيف اليومي الطازج، المنتفخ الساخن، لاهثاً بمشيك السريع لتصل إلى المنزل قبل أن يبرد الرغيف الذي كنتُ أنتظره أنا وأمّي ونشتهيه ساخناً مقرمشاً... لو تأتي مرّة في الشهر.. وليكن الأوّل من كل شهر! محمّلاً بالأكياس الورقية الملأى بفاكهة المواسم... وأركض أنا لآخذ كيس البرتقال الذي كنتُ أفضّله منك... وجيبك ملآن بأوراق العشر ليرات التي

تطقطق لأنها جديدة... لو تأتي مثلاً، كما كنت تستقبل زوّار المساء، بدشداشتك البيضاء المكويّة جيداً (هاجس أمي)... أو ربمّا كما كنت توقظني صباحات أيام العيد،بالعيدية والقبلات المعطرة برائحة أقراص الحلوى.....

لو تأتي... بكل فوضى الروائح...

وإذا شئت تعال بلا روائح..! فالمهم أن تأتي!

وحين تأتي سأخبرك...

أحتاج أن أخبرك... كم حزنتُ حين أنت رحلت وكم بكيت وكم لاأزال أبكي...

أتذكر حين كنتُ صغيرةً وسألتك: ما الدمع يا بابا؟

أجبتني حينئذ أن الدمع هو مطرٌ، حزنٌ تجمع داخل غيمٍ خانق، وحين صفعه برد الألم القارس، انهال مطراً ليخفف احتقان القلب، ومن بعده تشرق البسمة جميلةً كما قوس قزح... أأخبرك يا أبي أن المطر لم يتوقف منذ رحلتَ، ولا قوس قزح أشرق يوماً، ولا القلب خفّ احتقانه...

أريد أن أخبرك كم تمنيت أن أبكي في حضنك، بين يديك، وأسمعك تقول لي، لابنة التاسعة حينذاك، ولابنة الثلاثين اليوم،

أنك ستعود في آخر القصة كما يحدث في الأفلام الهندية.. سأخبرك أيضاً، أنني تمنيت أن أبكيك في حضن حسام... مؤكدٌ أنك تعرف حساماً الذي أحببته وتزوجته لأجدَك، ولم أجدك، لأنني أردتُ أن أجدكما معاً، فلم أجد أحداً منكما....

أستيقظ مرعوبةً على يد تهز كتفي، وعرقٍ كثيفٍ يبلل رقبتي.. بائعٌ متجولٌ يجرّ على عربته أوعيةً فيها عصائر متنوعة من ليمونٍ وجلاب وسوسٍ وتمر هندي، أقلقه شكلي نائمةً وأنا جالسة على المقعد الحجري فحاول إيقاظي... أشكره بشراء كوبٍ من الجلّاب ثم أردّه له فارغاً وأنا لا أزال أمضغ حبات الصنوبر دون أن أكترث لكونها بائتةً وقديمةً جداً... أسير باتجاه ساحة النجمة وفي رأسي هدفٌ محددٌ تماماً، سأقصد الحي الذي يسكنه هشام بعد أن دلّتني جميلة على العنوان المحدّد...

أتذكر سيارتي المركونة في شارع قريب، فأستبعد فكرة أن أستقلّها في تنقلاتي؛ منذ وقتٍ طويلٍ لم أقصد ذاك الحيّ، أخشى أن أتيه في مشواري أو أن لا أجد مكاناً أركن فيه سيارتي حين أصل... تمرّ أمامي كثيرٌ من سيارات الأجرة متمهلةً فأتجاهلها، لا أعرف إن كنتُ أتعمّد التأخّر والمماطلة في بدء مشواري المقرّر،

أم أني مشتاقة إلى المشي في هذه الشوارع التي احتضنت مراحل جميلةً من حياتي... أصل إلى قلب السوق الشعبية، سوق الخضار بدأ ازدحامها باكراً، إنه نهار الأحد والسوق يبدأ نشاطها في الصباح الباكر ويقفل باكراً أيضاً... مجدداً، فوضى الروائح والأصوات تتناوب على إدخالي مجدداً في دوامة الذكريات وتجذب كل حواسي إليها...

«حمرا يا بندورة»... «عسل يا بطيخ»... «أناناس يا شمام» هنا الفواكه نفسها تصرخ... أضحك من خيالي الواسع الذي بدأ يعقد مقارنةً بين الفواكه المعروضة على هذه البسطات بعشوائية وتلك المصفوفة بعناية في المجمعات التجارية الضخمة مصنّفاً هذه فواكه شعبية وتلك فواكه راقية، أتخيّل حبة البندورة هنا بخدين ممتلئين أحمرين أكثر من بندورة المجمعات التجارية المستلقية بكسل بين المكيّفات، والإجاصة خصرها أسمن من أمثالها «الكلاس» اللواتي أنهكهن «الدايت» وهذه الباذنجانة شاربها كثٌّ أسود، أما تلك البطيخة الظريفة فلا بد أنها ستُبرّد في نهر الأولي لذبحها بعد غداءٍ ممتعٍ في البريّة يوم العطلة!

أنتبه إلى أني أضحك بصوتٍ مرتفعٍ والناس ينظرون إليّ بابتسامات استغرابٍ أو سخرية، فأخفض رأسي وأنشغل بالتفرج

على واجهات المكتبات المنتشرة في زوايا السوق... هادئةٌ هي المكتبات هذه الأيام بانتظار بركة شهر أيلول المبلّل بالحنين وأول دموع الخريف وديون المؤونة وموسم العودة إلى المدارس...

أمرّ قرب المقبرة، أشعر بموجات الأمان تعتريني... لطالما كانت المقابر تشعرني بالطمأنينة والسلام... أتخيّل أولئك النائمين تحت الأرض، أتخيلهم مرتاحين سعداء، يعيشون حياةً أخرى أقل ضجيجاً، يتجوّلون آمنين، حيث لا خوف ولا حروب ولا نفاق ولا عقد نفسيّة، وفي مساءاتنا الأشدّ حلكة، يزورون أحلامنا بجلابيبهم الناصعة ليمسحوا عن أرواحنا شقاء النهارات...

دوماً أتساءل، هل الموتُ هو العالم الحقيقيّ، بينما حياتنا التي نعيشها كأحياء ليست سوى حلمٍ نراه في نومنا ونحن موتى؟

أصطدم برجلٍ عجوزٍ يجلس على كرسيٍ من القش أمام محلّه، أرتبك إذ أكادُ أقع وأوقعه معي، أعتذر عن كوني أمشي شاردةً ذاهلة، فتربتُ ابتسامته كتف إحراجي...

«نيّاله»... أقول في نفسي.... محظوظٌ بهذه الجلسة وسط هذا العالم المترع بالحياة الذي تفوح الروح من كل تفاصيله..

يشاهد مسلسلاً معاداً ربّما للمرّة المئة عبر تلفزيون لبنان...

كم أحبّ هذه المحطة! تعني لي الكثير وأنزعج جداً ممّن يسخر من جمودها أو عدم مواكبتها موجة الإعلام العصري الجديد...

كم أمتعتنا في طفولتنا حين كانت وحيدةً على الساحة، وكم قدّمت لنا أوقاتاً جميلةً في عز الحرب القاسية المستعرة..

أذكر حلقات الزجل التي كنتُ أشاهدها طفلةً مع أهلي وأنا أتساءل في سرّي ما علاقة صحون الخس والخيار على الطاولة بالكلام الجميل الآسر الموزون الذي يصدح من أفواه أولئك الرجال الذين كنتُ أظنهم أصدقاء أبي من فرط محبته لهم...

والمسلسل المسائي اليومي أشاهده مع أمّي قبل النوم، فأبكي معها لآلام هند أبي اللّمع، ويأسرني الحبّ الراقي في كلام عبدالمجيد مجذوب وتضحكُني «نهفات» إبراهيم مرعشلي.. وكم كانت تسحرني الأبواب السبعة في مسلسل أبو سليم وفرقته، وكم كنت أستمتع بأغاني ماما مهى في برنامج الأطفال الوحيد حينذاك، وأنا أتباطأ في أكل سندويش اللبنة مع الزيتون مرتديةً بيجامتي النظيفة محاولةً تأخير موعد نومي.. ولعلّ أكثر ما تحفظه ذاكرة جسدي، جنريك نشرة الأخبار الذي وُقِّتَتْ ساعتي البيولوجية عليه والعقاب الذي ينتظرني إن لم أغفُ قبل انتهاء موسيقاه!! يا إلهي إلى أين وصل بي طوفان الذكريات؟!

- «تاكسي؟» أشير بيدي مستوقفةً سيارة أجرة بيضاء مع نمرةٍ عمومية حمراء..

- تاكسي أم سرفيس؟

- لا، تاكسي لو سمحت.

- تفضّلي.. توكلنا على الله...

أخبره بالعنوان الذي أقصده فيستوضحني أكثر... أجيب بأني سأدلّه عليه حين نصل إلى الحيّ المقصود... يسير في الشارع المكتظ ببطء، أشعر بالحرّ فأنا منذ زمنٍ لم أستقلّ سيارةً غير مكيّفة... أفتح النافذة، ثم أغلقها، ثم أفتحها مجدداً وأغلقها مستمتعةً بتحريك المقبض اليدويّ بحركة دائريّة، بدل الزرّ الإلكتروني في سيارتي الذي ينصاع له الزجاج نزولاً بمجرد كبسةٍ منه... كم هي ممتعةٌ هذه التفاصيل، ممتعةٌ بإجبارنا على تحريك أطرافنا وتشغيل حواسنا..

لماذا تكتسب الأشياء الأكثر بساطةً فجأةً هذا المعنى العميق؟ لماذا كلّما زاد ثقل الحياة على أرواحنا، هربنا نحو الأطفال الذين كنّاهم ذات عمرٍ بعيد، نلهو بلعبهم ونختبىء تحت أسرّتهم كجرذانٍ خائفةٍ... أسئلةٌ كانت تحرث جلد دماغي كما يغزو القمل جلدة الرأس، تدغدغه بقسوةٍ موجعة، وتثير جنونه....

السيارة تمشي ببطءٍ مستفز، وشمس حزيران بدأت تلسع الجو بسياطها وأنا أتصبب عرقاً وأعصابي تبدأ بالاحتراق... السائق يتوقف كل ربع دقيقةٍ ليسأل أحد المارّة عن وجهته، يثير غضبي فأنبّهه بعصبيةٍ أنني أخذته «تاكسي»، أي إنني سأدفع أجرة السيارة كاملةً....

«لا تؤاخذيني يا عمّي.. نسيت والله..»

أندم على مخاطبته بعصبيّة فأبتسم معتذرة بخجل... أتأمل من الخلف هذا الكهل المتعب الذي يتحمل على مدى العام كلّ يومٍ ما عجزت عن تحمّله عشر دقائق... خيطٌ رفيعٌ من العرق يكرج من منبت شعره ليسيل على وجهه الذي ذكرني بالتين المجفف بتجعداته ولونه الأسمر... ألاحظ المنديل الأبيض المطويّ خلف رقبته تحت ياقة قميصه، يذكرني بمناديل جدّي الذي كان يحرص على المحافظة على لونها الأبيض نقيّاً من أي اصفرار... يرتفع صوت الراديو فيصلني صوت ذاك المطرب الذي كنتُ أعشقه قبل أن يعتزل الغناء مختاراً طريقاً آخر مختلفاً تماماً عن الفن والغناء، فأشعر بأن قلبي يغوص في صدري قهراً..كم كنت أحبّه!! كم كان صوته دافئاً وكم اقترنت أغنياته بمناسباتنا الجميلة... كانت انعطافته تلك موجعةً لي، كأني اعتبرتها طعنة معنويةً شخصية، فقد كنتُ أحبّه جداً...

- إلى أين بالتحديد؟

فعلاً أين بالتحديد، أسأل نفسي...

- لا أعرف بالضبط...

يستدير نحوي بدهشة:

- لا تعرفين ماذا يا أختي؟!

- أنزلني لو سمحت قرب المدرسة وأنا سأتابع مشياً على الأقدام... أنقده المبلغ الذي طلبه شاكرةً وأنزل من السيارة... أقف أمام المدرسة وأحاول أن أتذكّر... أأتقدم يميناً أم يساراً؟ أقرّر أن اليسار هو الاحتمال الأرجح... أسير بين بناياتٍ قديمةٍ وأحياء متلاصقة حتى أصل إلى معلمٍ مهمٍ من معالم طفولتي التي لم تُمحَ من ذاكرتي قط: الساحة الواسعة مع الأرجوحتين الحديديتين في زاويتهما بلونهما الأصفر الذي أكله الصدأ، لايزال الجنزير الضخم يحيطهما بإحكام... أحزن حين أراهما مركونتين في زاوية الساحة يكسوهما صدأ كثيف.. أيكون الصدأ هو شيب الأراجيح؟ أتخيلهما عجوزتين تقاعدتا وانزويتا بيأسٍ تسترجعان معاً أفراح الماضي وضحكات أطفالٍ كانت ذات يومٍ عشقهم الأول ومصدر سعادتهم...

أذكـر كيف كنّا نحن الأطفال نركض نحو الأرجوحة كالمجانين... ونتناوب على اللعب طوال الوقت الذي تقضيه أمي في زيارة أحد المعارف، في مقابل ليرة لكل دور، تأخذها صاحبة الدكان الصغير المقابل وتضعها في جارورها وهي ترمقنا بنظرة غضبٍ لم أفهم سببه حتى الآن...

حتى الدكان الصغير لايزال موجوداً! ها هو نفسه أمامي كأن السنين لم تمرّ عليه... الفرق الوحيد هو البضاعة المعروضة خارج الباب؛ ففي أيام طفولتنا، لم تكن تتوافر كل هذه الأنواع من السكاكر والشيبس والبزورات... كان يوجد عادةً أمام أبواب المحالّ الصغيرة برّادٌ للمشروبات الغازية التي كانت حينذاك تقدّم في زجاجات طويلة تُردّ إلى الدكان بعد الانتهاء من شربها، من هذا الدكان أيضاً كانت أمي تشتري هديّتها للبيت الذي ستزوره علبة من البسكويت لم أعد أذكر اسمها بالضبط، ما أذكره هو أنها كانت علبةً معدنية مستديرةً، وأن هذه العلبة كانت موجودة تقريباً في كل بيوت أقربائنا، فهي إما ملأى بالبسكويت اللذيذ وإما ببكرات الخيطان والأبر والدبابيس والأزرار وغيرها من عدّة الخياطة!

كنّا نشتري هذه الهدية لجدّة هشام في كل مرة نزورها، جدّة هشام لوالدته، أم يوسف التي كانت تشبه سنديانةً شقراء، طويلةً

قويّة البنية بوجهٍ مستديرٍ كتلك الصينية النحاسية التي كانت تقدّم عليها القهوة لأمّي، وصدرٍ مهول الحجم يحتلّ أقلّه نصف الجسم العلوي من جسمها!

وأم يوسف كما أذكرها، كانت جدّة «شابة» في أوائل الخمسينات من عمرها، مرحة كثيرة الضحك والمزاح والكلام تشعّ بالحياة كأنما تنبعث منها طاقة عجيبة تتحكم في الموجودين حولها، وكانت تعزو هذا المرح إلى زواجها المبكر في أولى سني المراهقة وتسخر من نفسها ضاحكةً: زوجوني وأنا أظنها نكتةً أو لعبة مسلّية، ولم أكن قد أنهيتُ كلّ ضحكاتي الطفولية بعد، وها أنا لم أنهها حتى الآن!

أدخل الدكان لأسأل عن أم هشام التي أخبرتني جميلة عن انتقالها للسكن في منزل أهلها بعد وفاة زوجها... لا بد أن أتأكد أنها لاتزال تُقيم مع أولادها في هذه البناية قبل أن أدقّ باب المنزل.... أجد في الدكان عجوزاً نبت فوق تجاعيد فمها شاربٌ خفيف... ليست نفسها العجوز صاحبة الدكان القديمة لكني متأكدة أنني رأيتها في الحيّ قبل الآن مرّات عديدة...

- صباح الخير يا حاجة...

– إيه، إنشالله بتحجّي، من وين بدي حجّ والحج صار بيكلّف هالقد... صباح النور.

– أريد أن أسألك لو سمحتِ عن بيت أم هشام، بيت أهلها في الواقع، أما زالوا يسكنون في هذه البناية؟

– تعيشي وتفتكري يا عيني، ماتت من زمان، أختها العانس المكربة تعيش فوقنا إذا أحببت زيارتها، لا شك أنها ستستمتع بحضور ضيفةٍ لتنكّد عليها...

ما هذا الاستقبال المقزّز!! شيءٌ يدعو إلى التشاؤم فعلاً... كم أنتِ كريهةٌ أيتها العجوز الشمطاء، فبكلامك الذي يفوحُ سموماً أفسدتِ عليّ مزاج الذكريات اللذيذ الذي كُنتُ أنعم به!

أخرج من الدكان ممتعضةً، لماذا تتكلم بهذه الطريقة عن هذه العائلة، لم تقل حتى كلمة «رحمها الله» حين ذكرت المرأة المتوفاة التي لا أذكر عنها إلّا كل خيرٍ، والتي كانت آخر ذكرياتي معها ساعة ملونة جميلة أهدتنها إلي عند نجاحي في المدرسة، وبقيتُ أتفاءل بها وأضعها في معصمي حتى اضطررتُ إلى خلعها بعد التحرشات اليومية من الشباب الذين يجلسون قربي في الباص الذي كان يقلّني يومياً من صيدا إلى كلّية الإعلام في بيروت، ذلك النوع من التحرش

البريء الذي يبدأ غالباً بالسؤال السمج نفسه: كم الساعة يا آنسة لو سمحت؟

أسير في الزاروب الصغير الذي يسبق مدخل الدرج: شلة من البنات الصغيرات يلعبن لعبة الـxo المرسومة بالطبشور الأبيض على أرض الشارع... أشاركهن في اللعب نصف دقيقةٍ وأنا أضجّ حبوراً فيفرحن بمشاركتي لهنّ وتقبلني إحداهنّ على خصري فأنحني لأعانقها...

تذكرني بنفسي منذ سنواتٍ بعيدة، حين كنتُ ألعب مع صديقاتي باللعبة نفسها في الحارة قرب المنزل... أسير فأصطدم بصبيّ في حوالى الرابعة يأكل بنهمٍ قطعةً من البطيخ والسائل الأحمر «يشرشر» من فمه على يديه وصدره ويصبغ الشورت الأصفر الذي يرتديه، أبتسم له وللأيام الجميلة التي كنتُ خلالها آكل البطيخ بهذه الطريقة الشهيّة.. أصعد بحذر الدرجات المتكسرة الأطراف التي لاتزال على حالها كما كانت دائماً، وحين أصل إلى الطابق الأول المواجه للدرج تستقبلني اللوحة الكبيرة لآية الكرسي معلّقةً فوق باب المنزل وقد ترك الزمن آثاره عليها فامحت بعض حروفها وتآكلت جوانبها، اللون الأخضر للباب الخشبي بهت كثيراً وتقشرت جوانبه حتى بان لون الخشب الأساسي قبل الطلاء، أدقّ

الجرس، أطربُ لصوت الرنّة التي تشبه زقزقة عصفورٍ فأعيدها مراراً، من شباكٍ جانبيّ أسمع درفة الألمنيوم تفتح بعصبيّةٍ وصوتاً يصيحُ بغضب: مين؟!! تمهلوا قليلاً أحرقتم الجرس!! ثم يطلّ وجهٌ من النافذة الصغيرة نفسها، ويطلّ معه ماضٍ طويلٌ عريضٌ سخيٌّ بذكريات وأحداثه حارقٌ بالحنين إليه: وجه نادية...

نادية، خالة هشام السمراء المدوّرة الضخمة الملامح، صاحبة القلب الطيب والشخصية الفجّة العصبيّة... نادية التي لاسمها قصةٌ طريفةٌ: كان أبوها مغرماً بناديا لطفي الممثلة المصرية الشقراء الشهيرة، وصادف أن أمّها حين اشتدّ عليها الطلق، كانت جالسةً مع زوجها أمام التلفاز تطوي الغسيل وتشاهد فيلم الخطايا لناديا لطفي، وكان أبو يوسف يقشر الليمون ويتغزل بجمال الممثلة ويستعجل زوجته أن تلد له طفلةً تشبهها وتحمل اسمها... وحين ولدت زوجته بعد ساعاتٍ قليلة، كان ينتظر أن تخرج القابلة من غرفة النوم بطفلةٍ شقراء بيضاء كأمها، ولكن الطفلة التي كانت بين يدي القابلة التي خرجت من الغرفة تزغرد وتقول: ما شاء الله، وزنها يقارب الخمسة كيلوغرامات، كادت تموت والدتها وهي تخرجها إلى الدنيا، تشبهك كثيراً يا أبا يوسف، تتربّى في عزّك إن شاء الله كانت مختلفة عن كل التوقعات! إذ وجد الوالد الحالم

بين يديه طفلةً ضخمة سمراء تشبهه بكل التفاصيل فنادى أمه وهو يصرخ: وهل تزوّجتُ هدى الشقراء الجميلة لتنجب لي بنتاً تشبهني أنا؟! ورغم ذلك، سمّاها نادية وعاشت نادية وحملت اسمها!

كان الجميع يتندرون كيف أن نادية أخذت من كل فردٍ من العائلة أبشع ما فيه! من والدها السمرة والشفاه الضخمة ومن والدتها الأنف المثلث، حتى الشعر الأجعد والقامة القصيرة ورثتهما عن جدتها لأبيها! وكانت كل هذه الأحاديث تدور أمام الطفلة الصغيرة التي («صغيرة» كيف ستفهم؟) كما كان جميعاً يعتقدون... لكن الطفلة التي كانت فعلاً صغيرة كانت تسمع وتفهم... تسمع وتخزّن... وتحزن كثيراً حين يرسم ما تسمعه في لاوعيها صورةً قبيحةً جداً عن نفسها...

وتعوّدت ذلك، تعوّدت تلك الأحاديث التافهة المدمّرة، وتندّر أبيها في سهرات الجيران ضاحكاً: «يجب أن نبدأ الادّخار لها منذ الآن، سندّخر كثيراً لنشتري لها عريساً...».

علقت هذه الجملة بالذات في أذنيها وعقلها، وكسرت قلبها.. صار كل همها في الحياة أن تجد ذلك العريس المستحيل! فهي، وبشهادة أبيها شخصياً لن تجد عريساً يتزوجها! وكبرت الفتاة الطيبة وهي مقتنعة تماماً بأنها قبيحة وأنها أبداً لن تجد من يحبها.

وحين بلغت سن المراهقة وتدفقت غرائزها استداراتٍ في جسدها وبراكين في روحها، أغرمت للمرة الأولى بخالد، ابن جيرانها الذي يعمل مع والده في ورشة تصليح السيارات. كانت تنتظر عودته كل مساءٍ من الورشة، ومن شرفتها الضيقة كانت تراه ملطخاً بزيوت السيارات وشحومها، وفي الشرفة نفسها، تنتظر أن تراه مجدداً بعد أقل من ساعةٍ خارجاً من منزله بثياب نظيفة وشعرٍ مصففٍ لامع ليجلس مع شلّته في الحي يلعبون الورق ويتسامرون أو يستعرضون مهاراتهم في قيادة الدراجة الناريّة.. كانت تحلم به ليل نهار، تتخيله في أحلام يقظتها زوجاً يعود آخر النهار ليتناول معها طبخة ورق العنب التي أعدتها بنفسها، بعد أن تساعده بفرك بقع الشحوم والزيوت عن جسده، وتكوي له ثيابه النظيفة وهو يتسلّى بمشاهدة مباراة رياضية أمام التلفاز بانتظار متابعة السهرة معها، وحدهما أمام المدفأة وحين تنام كانت تحلم بكلّ ما تتمناه فتاةٌ مع حبيبها... أما هو، فكان يراها ولا يراها، وكان يبتسم في وجهها كثيراً، ابتسامة كانت تظنها لها بينما هو كان يبتسم لنفسه. كان يسخر من ذوبانها به، ويخبر أصدقاؤه عن الفتاة القبيحة ذات الشارب الخفيف المتيّمة به ويقول: «طموحة جداً هذه القردة! تظنني سأنظر إليها؟ مسكينة فعلاً».

وظلّت نادية تنتظر، وتراقب بيأس المحابس الذهبية التي تلمع في الواجهات الزجاجية، وتلك التي تدلّل البناصر الناعمة لصديقاتها، وحتى هاتيك التي تطوّق بحزمٍ بناصر الزوجات المخشوشنة من الجلي والغسل...

- سألتك من أنت؟..

- افتحي الباب أنا قمر...

- ومن تكون قمر هذه؟!

- افتحي لا تخافي.. أتذكرين هذه الجملة: جايبتلك مشبّك وعوّامات؟

تفتح نادية الباب متفرسةً في وجهي: من أنت؟

أضحك وأنا أقول لها: ما بدّك مشبّك وعوّامات؟

أنا التي كنت كل يوم جمعة بعد الظهر أحضر لك صحناً من المشبّك من عند جدتي... وكنت تشدّينني من جديلتي الطويلة وتقولين لي وأنا أخرج: قولي لستّك جاييكي معزاية أربطيها.. تذكرتيني يا نادية؟

- جدتك أمّونة التي في الشارع الثاني؟

- نعم جدّتي أمونة...

- وأنت قمر حفيدتها التي كانت تسكن في البلد؟

- نعم أنا قمر بنت «البلد».

والبلد الذي تعنيه غير البلد الذي يفهمه أبناء بيروت الآن، فهي ليست وسط المدينة الراقي والأنيق... البلد هو الاسم الشعبي الذي يطلقه أبناء صيدا على منطقة صيدا القديمة كاسم دلع.

- تغيرتِ كثيراً يا قمر وصرتِ أحلى من القمر! تفضلي تفضلي.. تقول وقد أشرقت عيناها في وجهها بفرحٍ طفوليّ كمصباحٍ أنار بضوئه فجأةً زقاقاً مظلماً ملأته أوحال الشتاء..

أدخل إلى المطبخ الواسع نسبياً الذي جعلوا في زاويةٍ منه غرفة الجلوس، أجلس على الصوفا الزرقاء المعرّقة، مباشرة تحت الشباك الذي تدخل منه الشمس إلى المطبخ..

- كيف تشربين القهوة؟

- حلوة لو سمحتِ.

تبدأ بإعداد القهوة أمامي وتسألني:

- وماذا ذكّرك بنا بعد كل هذه السنوات؟ منذ توفيت جدتك

لم نعد نراكِ قط... ووالدتك رحمها الله... ظلت تزورنا حتى آخر أيامها... على فكرة، هل رفعتم دعوى ضد ذلك الطبيب «الحمار»؟

- لا ذنب للطبيب يا نادية.

- كيف؟ سمعت أن موتها كان سببه غلطة طبيب، ألم يقطع لها شرياناً بالخطأ وهو يستأصل تلك الزائدة اللعينة؟

- كلا، هي أصيبت بمضاعفاتٍ حادة بعد العملية، لم تكن العملية استئصال زائدة يا نادية، كانت ورماً خبيثاً أعلن نفسه فجأة ودون أي مقدمات قضى عليها في أيّام قليلة...

- يا لطيف! سرطان يعني؟ «كش برّة وبعيد» ألله ينجينا، كيف ولم تكن تشكو من أي وجع؟

- لهذا يسمونه الخبيث يا نادية.. استشرى في جسدها بصمتٍ ولم يرحمها... ألله يرحمها...

- «آمين».. «قول دامعة»... وأنت ما أخبارك؟

- الحمد لله!

- يا محتالة... كبرتِ وها أنت تشبهين ملكات الجمال....

رحم الله أيّام العصيدة على البلاط البارد في مساءات السبت

في بيت جدّتك... والسحلب الساخن تُحضره أمك معها من ذلك المحلّ الشهير في صيدا القديمة فنتشاجر من سيأكل الحصة الكبرى.. كل الأيام الجميلة ذهبت يا قمر... الطيبون رحلوا، ورحل معهم كل الخير والأوقات السعيدة...

- ورحلات الباروك ونبع الصفا، حين كنّا نستأجر كلّنا باصاً مع سائق ونقضي كل الطريق نصفق ونغني ونرقص...

- وعمرو دياب يغنّي لنا كل الطريق.. هاهاها...

- تزوجتِ يا نادية؟

تضع نادية فنجانها بحركةٍ عنيفةٍ تصدر صوتاً مزعجاً كردة فعلها وتقول بعصبية: لا لم أتزوّج، ألديك عريسٌ لي؟ كانت تقولها بكل جديّة، بكل يأسٍ وبكل احتياج... كأن الدنيا توقفت عندها على عريسٍ لم يأتِ يوماً... ونادية فعلاً معذورة! ففي بيئةٍ كبيئتها زواج البنت هو الحدث الأهم في حياتها... بل هو حياتها! ومن لا تتزوج تبق كياناً ناقصاً كأنها إنسان معوّق، لا يتمتع بالأهليّة الاجتماعيّة الكافية التي تخوّله العيش كأي كائنٍ مكتمل الإنسانية... يا إلهي كم تعذّبت نادية! وكم لاتزال تتعذب... أكاد أرى رغباتها المخنوقة متكوّمة في هاتين الحفرتين الغامقتين تحت عينيها... أكاد أرى

أمامي أربعين سنة من الانتظار متعفّنةً في قلبها الذي لايزال قلب طفلةٍ صغيرة..مسكينةٌ يا نادية!

تلفتني صورة صغيرةٌ معلّقةٌ على البرّاد في كادرٍ معدنيّ مغناطيسي لصبيّ في حوالى السادسة، أسمر ذي وجه مستدير وعينين خضراوين يشبه كثيراً وجهاً أنار مراهقتي بشعورٍ لايزال ينبض في تلك الغرفة السريّة في زاوية قلبي، تلك الغرفة التي جمعتُ فيها كل أغراض طفولتي وصباي وصناديق ذكرياتي وجثث أحلامي المحنّطة إلى الأبد، وأقفلت عليها باباً لم أعرف أن هذا الوجه ظلّ طول العمر، مفتاحه الوحيد...

– البارحة شاهدتُ فيلم «حبيبي دائماً»، أحبّ هذه الأفلام يا قمر لأنها تثبت أن الحب وحده على حق، وأنّه وحده ينتصر في النهاية..

– لكنها ماتت في النهاية يا هشام...

– ماتت بين يديه يا قمر..

– إيه... بس ماتت!! أنا لا أريد أن أموت، لا على يدي حبّ ولا شيء آخر، أريد أن أعيش.. وأن أعيش كما عاشوا في الفيلم، أسافر إلى باريس ولندن، لكن ليس للعلاج، بل للنزهة، أن أمشي

تحت المطر وأنا أرتدي المعاطف الثمينة، أن أتنزه في الغابات... أريد أن أعيش الحب لا أن أموت بين يديه...

- إنها تمطر... مؤكدٌ أنك نسيتِ مظلّتكِ...

- كلا، لم أنسها... أضعتها كالعادة...

- الله يساعدني عليكِ! يعني لازم المشوار اليومي من الحارة لثانوية البنات يكون «حمّام» ببلاش؟!

وضحكنا... كما كنّا نضحك دائماً، ملء رئتينا... ربّما لم أضحك في حياتي قط كما كنت أضحك مع هشام... ملء رئتيّ، ولم أستمتع كما كنتُ أستمتع معه، كيف كانت له هذه القدرة على جعل كل شيءٍ بسيطاً وسلساً، وكيف كان يجعل كل تفصيل جميلاً..

- قمر... هذا محمود ابن هشام...

هو محمودٌ إذاً.. كما حلمنا معاً ذاتَ حبٍّ سحيق... ذلك المساء حين كنت كعادتي على سطح المبنى أراجع درس الجغرافيا، وكان تشرين يطرّز السماء بنجوم حوراء العيون... حين سقط من السماء القريبة ملقط الغسيل، حمامتنا الزاجلة المعتادة تحمل في فمها كما كلّ يومٍ، رسالة منه هو كتب فيها بخطّه المرسوم:

جهزي لي الأرض كي أستريح فأنــا أحبــك حتــى التعــب

حينذاك لمعت في خاطري فكرةٌ كتبتها له على ظهر الورقة:

سنتزوج، ونسمّي مولودنا محموداً على اسم محمود درويش الذي نعشقه كلانا... وكان ردّه يومئذ ابتسامةً واسعةً بادلتها بأخرى قال فيها هشام إنها كانت أكثر إشراقاً من القمر...

- مرحباً محمود... تعالَ عانقني...

وبينما كانت كل الهورمونات التي اكتشفها العلم والتي لم يكتشفها بعد تتخبط في جسدي ويبرّد رذاذها روحي العطشى، كان صوت نادية يصلني من وادٍ سحيقٍ كأنها تلقي بحصيات صغيرةٍ مزعجة في طوفان مشاعري الذي أغرقني فيه عناق محمود....

- يتركونه لي لأتسلّى به... أنا أعيش وحيدةً كما تعرفين، أنهَى عامه الدراسي منذ أيام قليلة وأتى ليبقى مع «خالتو»، أليس كذلك يا روح خالتو؟

تنتزعه من بين يديّ كأنها تنتزع قلبي، لو أنجبتُ ذاك الطفل الذي حملتُ به في المرّة الوحيدة التي كنتُ فيها مع حسام امرأةً لكان ابني اليوم في العمر نفسه تقريباً... لكن دمي رفض الطفل حينذاك، تخثر في أوائل الشهر الثاني من الحمل وقتله، هكذا

أخبرني الطبيب بعد النزف الذي أصابني يومذاك وعرفت في اللحظة نفسها أني كنتُ حاملاً وأني فقدتُ جنيني.

تفرقع قبلات نادية على وجنتي الطفل، تلك القبلات النهمة التي لا تتقن منحها إلّا الخالات والعمّات، قبلاتٌ كاملة الدسم، مشبعة بدهون الحب واللهفة المفيدة للقلب والروح...

- يلّلا يا خالتو... غنّي لنا قليلاً...

يشرق وجه محمود بالثقة، يا إلهي كم يشبهك يا هشام! هذا العنفوان المغلّف بالوسامة كحبّة اللوز المغلّفة بالشوكولاتة الشهيّة...

طيري طيري يا عصفورة أنا متلك حلوة صغيورة...

يغنيها محمود، وأطير أنا إلى دنيا أخرى... تخترق أنفي رائحةٌ نضرةٌ آتيةٌ من ماضٍ بعيد، رائحة قماش التول الأبيض الذي ترتديه البنات الصغيرات في الحفلات المدرسيّة، مع أريج نسيم طريّ هارب من ليلةٍ صيفيةٍ بعيدةٍ بعيدة.... أنا العصفورة، أرتدي فستاناً أبيض ذا كشاكش واسعةٍ، «يعقوصني» قماش الدانتيل على الصدر والكتفين، شعري مشدودٌ إلى أعلى في كعكةٍ صغيرةٍ محاطةٍ بالورود البلاستيكية، أغنّي... أغنّي وأغنّي، وأدوخ في فرحٍ طفوليٍ

باذخ النشوة مع تصفيق الحاضرين في المسرح المدرسيّ، وأمّي وأبي يلوّحان لي بأكفهم علامة الرضى والفخر...

- شكلها خَوْتَة هذه المخلوقة!! وينك يا قمر؟ لماذا تبكين وتشهقين هكذا؟

أفيق من دوختي العاطفية على انفجار دموعي، أرجعني محمود طفلةً أضاعت طريق العودة، فما عدتُ أعرف كيف أرجع إلى عالمي ولا عدتُ قادرةً على أن أجد زاوية أختبىء فيها حيث وصلت...

- نادية، أين هشام؟

تفتح عينيها بذهول وترفع حاجبيها:

- وشو بدّك بهشام؟!

- أين هو... أخبريني...

- لكنك تزوجت يا قمر... أما زلت تذكرين هشام؟! هشام أيضاً تزوّج وأنجب... ماذا تريدين منه...

- أريده هو...

- كم أنت وقحة!

- لماذا وقحة؟ أريد أن أتكلم معه..

- هشام ليس هنا... سافر يا نادية؟ تقولها بأسى...

- إلى أين سافر؟

- لا أعرف...

أستشفُّ من لهجتها الحزينة أنه في مكانٍ غير آمنٍ...

- قولي لي الحقيقة... أين سافر هشام؟

- علمي علمك يا قمر... الدنيا تغيرت كثيراً، لم نعد نعرف من ذهب أو إلى أين ذهب.. وانسابت دموعها على وجهها المظلم كحجارٍ تجمعت بعد المطر وسالت في الأزقة المعتمة...

أضمّها بصدقٍ، مسكينة يا نادية مسكينة.. كم ظلمتها الحياة...

- فضفضي لي أرجوك...

- أخبريني أنت أولاً، ماذا تريدين من هشام؟

أخبرها؟ ماذا أخبرها! أأخبرها أني أتيت أبحث عن ماضٍ لم يصبح ماضياً يوماً؟ أم عن حاضرٍ لم أعشه حاضراً قط؟ أأخبرها أني لاأزال أحيا هناك... لم أترك ذاك «الهناك» ولا لحظة... كيف ستفهم عقدي النفسية وخيباتي المتلاحقة، كيف ستفهم أنّه يمكن

أن أكون غير سعيدةٍ مع زوجٍ وفّر لي كل أسباب السعادة المفترضة، كيف ستفهم أني ضائعة، أبحث عن شيءٍ لا أعرفه والمرعب أنني ربما لن أعرفه أبداً... والأهم، كيف ستفهم أنني أبحثُ عمّا يرمز له هشام، عن أنا القديمة التي كنتُ أحبها وأحبّ الآن كل من كان يحبها؟ أبحث عنها في كل من كان يسكن فيها أو تسكن فيه علّي أجدها وأرتاح... إنني أبحث عن أمي التي ماتت حين صار متاحاً لي أن أجعلها ترتاح وتسعد، عن أبي الذي اخترعتُ له صورةً علقتُ عليها كل ما كنت أتمنى وجوده فيه؟!!

- تعالي يا قمر... تعالي إلى غرفتي...

أدخل غرفتها، وأفاجأ بما أراه! كأنها غرفة مراهقة، كل شيء فيها ورديّ: الستائر، مفارش السرير، لون الجدران، حتى الدبدوب الزهري الكبير على الكنبة التي تشبه الكف المفتوحة...

- أهذه غرفتك يا نادية؟

- نعم هذه غرفتي، التي حلمتُ بها منذ كنتُ طفلة، منذ كان أهلي لا يفعلون أي شيء سوى إشعاري بأنني لا أشبه الفتيات بشيء وأني خذلتهم بقباحتي... وخزانة الحائط هذه أترينها يا قمر؟ لو تعرفين ما فيها؟ جهازي كلّه...

- جهازك؟

- نعم، جهازي... حين كنتُ مراهقة وكانت كل نساء الحيّ يقصدن الشام للتبضع وتجهيز بناتهنّ العرائس، كانت أمّي تشتري في كل مشوارٍ غرضاً لي وتخبئه.. مناشف، شراشف، لحافاً، ثياباً داخلية وقمصان نوم... حتى المطرّزات التي تفرش على الطاولات، حتى مفرش العروس، اشترتها كلّها بانتظار أن يأتي النصيب، النصيب الذي قضت عمرها كلّه تدعو أن يكون أبيض كقلبي، ولم يأتِ النصيب قطّ، ليتهم يستطيعون شراء هذا النصيب الذي يسجن عمرنا كلّه بين أنيابه.

أقلّب بين يديّ كل هذه القطع الجديدة التي لاتزال في أوراقها لم تستعمل من قبل، ألاحظ كرات النفتالين المدسوسة بينها لإبعاد العثّ والحشرات الأخرى التي تستوطن الأقمشة، وأقرأ أسماء المحالّ في الشام وماركات الثياب الداخلية المعروفة هناك، يؤلمني حنينٌ جارفٌ إلى دمشق، التي كانت ولاتزال تعني لي الكثير... فسوريّا التي نراها اليوم في نشرات الأخبار مدمّاة مقطّعة الأوصال كانت حاضرةً بقوةٍ في بداية حياتي... ففي الطفولة كانت تعني لي برامج الأطفال ومسلسلات الكرتون الناطقة بالعربية الفصحى، والتي كنتُ أشاهدها على محطاتها التي تلتقطها شاشات

التلفزيون في قريتي لقربها من الأراضي السوريّة، التي كانت تبعد عنها أقل بكثير مما تبعد قريتي عن مكان سكني في صيدا، والتي كانت مقصد أهل القرية للتسوّق وشراء الحاجات من أهلها الذين يشبهون بلباسهم لباس جدّي من عباءةٍ وكوفيّة وعقال...

دمشق، سوق الحميديّة التي يشبه السير فيها ساعاتٍ مع جدّتي، السير في صندوق الفرجة العجيب....

دمشق، الفندق الشعبيّ الذي يطلّ على قلب السوق والزحمة والضجيج الملآن بالحكايات...

دمشق جهاز العرائس والثياب القطنية لحديثي الولادة... دمشق ودمشق ودمشق...

أعترف أنني كنتُ في طفولتي ومراهقتي أسمع كثيراً من الشتائم والإهانات لسوريّا، وأن حروباً اشتعلت في بلدي لسبب أو لآخر له أو ليس له صلة بها ربّما، لكن كل ذلك لا يعنيني... ما يعنيني الآن هو ذكرياتي، وما ينغص صفاءها من صور أطفالٍ أراهم على الشاشات بأفواهٍ فتحت على وسعها لاستنشاق الموت، وبعيونٍ مغمضةٍ على أحلام لما تنضج حباتها الخضراء بعد... ومن صور عائلاتٍ تعيش في الحرّ والمطر والصقيع والخطر بعيداً عن بيوتها وعوالمها والسطور التي كان يجب أن تكتب فوقها قصصها... أزيز

رصاص يلعلع فجأة مخترقاً المكان، هذه المرّة الصوت ليس في رأسي أنا، الصوت يأتي فعلاً من الخارج!

تركض نادية وتفتح الباب، تخاطب جارتها في الطابق نفسه التي هرعت بدورها إلى الشرفة الطويلة المشتركة بين شقق الطابق...

- شو القصة يا أم جلال؟

- عم يقولوا الجيش وجماعة دينيّة مسلّحة..

- يا ويلي... الله يجمّلها بالستر يا رب..

- والله شي بيخوّف.. الرصاص شكلو كتير قريب!

- إيه.. الله يستر!

تدخل نادية المنزل مجدداً، لتجدني مصفرّة من الخوف.. لا شيء يرعبني كصوت الرصاص، ولا شيء يقرفني كالنزاعات والمعارك والحروب والقتل والدماء.. تشغل نادية جهاز التلفاز الصغير المعلّق في المطبخ حيث نجلس، الأخبار العاجلة تحتل الشاشة المحلية وكلّها تتحدث عن ضراوة المعركة بين الجيش اللبناني وتلك الجماعة المسلّحة أيضاً.. يزداد خوفي حين أعرف مكان المعركة، وأفكر في تلك المنطقة الجميلة ومن يسكن فيها من

أصدقاء، ثم أفكر في أفراد الجيش: كلّهم شبانٌ في عمر الحبق، لهم أمّهات وزوجات وحبيباتٌ وأولاد، لهم هواياتٌ وأصدقاء يشاركون فيها، لهم أحلامٌ وخيباتٌ وانتصاراتٌ وانتظاراتٌ وهزائم.... أفكر في الجندي الذي مررت أمام حاجزه البارحة، ربما كان لديه خطيبةٌ كانت تتمنى لو يقضي معها سهرة السبت، أتذكر أولئك الجنود الذين كنتُ ألتقيهم دائماً في الباصات أثناء تنقّلي من وإلى جامعتي في بيروت، وخصوصاً السعداء منهم الذاهبين في مأذونيّة يخططون كيف سيوزعونها بين العائلة والوجبة التي لا تطبخها أمهاتهم إلا لهم حين يأتون من الخدمة، وبين أصدقائهم والمشاوير وجلسات لعب الورق معاً... أفكر أيضاً في الشبّان الآخرين المقاتلين ضد الجيش، هم أيضاً لهم أمهاتٌ ينتظرن أن يعودوا إليهن أحياءً، وأولادٌ يحتاجون إلى أكفّهم لترسم لهم طريق الحياة....

- «ولعت... ولعت عنجد!!» أسمع نادية تولول...

صوت الرصاص يلعلع من جديد كأنه يخاطبني مباشرةً أن أفيقي من شرودك يا غبيّة... لا أعرف ما الذي يستحضر في خاطري صورة أحد المطاعم الفاخرة التي كنتُ أتناول فيها عادة غداء الأحد مع زوجي والأصدقاء، فأتذكر أن اليوم هو الأحد وهذا يعني أن العديد من العائلات الصيداويّة تجتمع في بيوت الأهل

لتناول الغداء معاً... أفكر في الأطفال الجالسين بأمانٍ في أحضان أجدادهم وفي الجدّات اللواتي يقفن من أول الصباح في المطابخ لإعداد ما لذّ وطاب من الطعام والحلويات للأحباب الذين يقضون الأسبوع كلّه في انتظار اللمّة تحت سقف بيت الطفولة وفي ربوع الوطن الأوّل: أمهاتهم وآبائهم.. أذكر حين كنتُ طفلةً وكانت الحرب في أواخرها، ما إن يبدأ صوت الرصاص حتى يركض كلّ منا ليحتمي بأمه أو أبيه، وما إن يلمس أي جزءٍ من أجسادنا طرف ثوب أحد أبوينا حتى يعمّ الأمان ويزول أي شعورٍ بالخطر... ليتنا بقينا أطفالاً، وليتنا ظللنا مؤمنين بقوة الحب الذي يمكن أن يصنع أي معجزة!

- شكلها ولعت عالمظبوط!

صوت الرصاص يزداد كثافةً منذراً بوقوع كارثة قريبة، يخرج سكان الطابق من بيوتهم المتجاورة يلحق بهم أطفال بملابسهم الداخلية ويدور بينهم الحوار الآتي:

- معقول تتوسّع؟

- كل شيء معقول! ألله يستر.

- والله لا تنقصنا الهموم، يكفينا ما فينا: الانفجارات المتنقلة، الغلاء والكهرباء المقطوعة والمياه الشحيحة.... ولك آخ!

- أدعوا للجيش اللبناني يا جماعة... هو سندنا الوحيد...

- أدعوا لكل الشباب! وهل عناصر الجيش أولاد ناس وبقيّة الشباب وجدهم أهلهم على الطريق؟!

- كلّه إلا الجيش يا أبو موفّق...

- كمان كلّه إلا شبابنا يا أبو العبد..

- أوقفوا هذا الحديث الآن! سنتشاجر هنا أيضاً والبركان من حولنا يكاد ينفجر فينا! فليضع كل منكم لسانه في فمه ويصمت... كلّنا أهلٌ ولا مكان لفتنٍ وفتانين!

- يللّا... كلٌّ إلى منزله، هدأت الأمور الآن... إن شاء الله لن يحدث أي شيء...

يهدأ الرصاص مدّة وجيزة، أودّع نادية يائسةً من عدم حصولي على غايتي من الزيارة... أين سأذهب الآن؟ أسأعود إلى منزلي بعد أن اقتلعت نفسي منه كما تقتلع العاصفةُ شجرة الورد الضعيفة، أسأعود إلى عالمي الفارغ؟ وزوجي ماذا سأقول له؟ أين قضيتُ هذه الليلة؟ ولماذا عدت؟ أقول له رضخت للواقع القاتل، عش هنيئاً واتركني أذبل في زاوية عالمك كنباتات الظلّ الكئيبة؟

أطلب من نادية رقم هاتفها النقّال فتعتذر أنها لا تملك واحداً

وتعطيني رقم خطّها الثابت في المنزل، أبتسم للرقم الذي يبدأ برمز الـ «٠٧»، فمعظم أرقام الذين أحبهم في حياتي تبدأ بهذا الرمز... أعانق محموداً بشغفٍ وأقبلها معتذرةً عن إزعاجها واعدةً إياها بزيارةٍ قريبةٍ.... ربما في الغد إن قررت قضاء هذه الليلة أيضاً في صيدا... تشد على يدي وتقبلني مجدداً بمحبةٍ حقيقية...

أنزل الدرجات ببطءٍ حزينٍ وموجات الأسى تجتاحني بعدما خمدت كل مشاعر الحنين والإثـارة والمغامرة داخل روحي، وبدأت أخرج من لذة الذكريات وخدر الأمل بسعادةٍ مقبلةٍ وإن كانت موقتة أو عابرة. عاد الملل من جديد يلف أذرعه الدبقة المقرفة حول عنق وجودي بينما عشرات الأسئلة تطنّ في رأسي كذبابة مزعجة: ما الذي أتى بي إلى هنا؟ وماذا جئتُ أريد بالتحديد؟ ما معنى ما فعلته وما أفعله الآن، بل ما الذي أفعله بالضبط؟ وإلى أين سأذهب الآن... أعود إلى عالمي الفارغ، إلى سجني الواسع، أذهب صباح الغد إلى الشركة كالمعتاد، وأعمل وأحاول أن أجد معنىً لوجودي؟ أتذكر فجأةً حلماً قصيراً رأيته فجراً خلال الوقت القصير الذي نمته.. رأيتُ نفسي أرتدي ثيابي المدرسية لكني لم أكن طفلةً، كنت أنا الآن، في ثيابٍ مدرسيةٍ زرقاء نُقشت عليها غيومٌ بيضاء ضاحكة، وبضفيرتين طويلتين جداً، تشبهان لهب النار، كانتا

تمتدان من خلف أذنيّ حتى كاحلي، كل منهما كأفعى مشتعلة ذات ألسنةٍ عديدة، وإذ بي أُخرجُ من حقيبتي المدرسية ثوب عُرسي وقد غطته طبقةٌ سميكة من الغبار...

وفي آخر الرواق الملآن بالحفر التي كنت أسير بينها بخوفٍ وحذر، كانت أمي تقف، تزغرد بصوتٍ مخنوق ودموعها تنهال، وهي تحثني على ارتداء الثوب لتراني عروساً فيه، وما إن اقتربتُ من حضنها حتى صار الثوب شديد البياض، رقراقاً كنهرٍ من الحليب...

دوي انفجار قوي يهزّ المكان، قذيفةٌ قريبة جداً انفجرت في الهواء.. لا أشعر إلا وأنا أركض على الدرج صعوداً من جديد وأدق بعنفٍ باب منزل نادية، تفتح لي الباب بوجه مصفرٍ ومحمود الصغير يبكي ملتصقاً بها متشبثاً بخصرها يطوّقه بيدين مرتعشتين...

- ماذا يحدث يا نادية؟!

- يقولون إن المعركة انتقلت إلى هنا.

- أين هنا؟ ماذا تعنين بهذا يا نادية؟ أسأل برعبٍ حقيقي!

- هنا في المنطقة؟

- أتعنين أني لن أستطيع الخروج من هنا؟

- لا أعرف يا قمر.... إفعلي ما يروقك، أرجوك أنا لستُ

مستعدةً لتحمّل مسؤولية إضافية فوق مسؤوليتي عن محمود المرتعب الآن...

أدخل وأجلس مجدداً على الصوفا نفسها، تدعوني نادية لترك المطبخ والتوجه نحو الصالة لأنها أكثر أماناً، ألحق بها إلى الداخل فتستقبلني على الجدار صورةٌ للشخص الذي من أجل لقائه مشيتُ مشوار العجائب هذا: صورة هشام...

تغيّر كثيراً هشام، ليس هو هشام الذي في خاطري، نبتت له لحية كثّةٌ وعيناه ازدادتا اتساعاً وحدّة، جربتُ أن أرى فيهما تلك النظرة التي جئتُ أبحث عنها، لكن نظرةً أخرى حلّت مكانها، قصّ شعره الذي كان طويلاً جميلاً، ونبتت تجاعيد صغيرةٌ خجولة حول عينيه كما تنبت الأشواك على ضفاف الورود... أبحث عن يديه في الصورة، يديه اللتين طالما حلمتُ بهما في يقظتي ومنامي فأجد بدلاً منهما كفاً ثقيلةً ملقاة على كتف فتاة يبدو من عمرها والتشابه بينهما أنها ابنته، وإلى جانبها تقف امرأةٌ في زيّ كلاسيكي جداً ومحافظ، ووجهٍ شديد البياض ذي ملامح مبالغٍ في نعومتها وحياديتها... أشعر بخيبةٍ لرؤية عينيها باردتين دون تعابير أو أصوات، أهذه هي التي أحبّها هشام وتزوجها؟ لا شيء فيها يتكلّم! صفحة فارغةٌ، وجهها وتفاصيلها كأنها رسمت بتقشفٍ شديد، كأن عينيها لتريا

فقط وفمها ليتسع للقمةِ أو لخروج كلمة... تتنابني مشاعر غريبة عجيبة وأنا اتساءل من هذا الذي في الصورة، ومن هؤلاء الذين معه؟! ماذا يهمني هو وماذا يعنون لي هم؟ نظرته الحادّة المخيفة تشرئبّ من داخل الإطار الخشبي مخترقةً سكينة وجودي المملّ.

وما الذي أفعله أنا الآن، قتل الملل أم قتل نفسي؟

أنتفض بغضب، غضب من تهوّري ومن عدم اتزاني رغم أعوامي الثلاثين، وأقرّر أن أرحل فوراً إلى غير رجعةٍ مادام صوت الرصاص توقّف...

سأذهب يا نادية، هدأت الأمور في الخارج على ما يبدو، أشكرك على استضافتي وشكراً على الإزعاج...

نخرج إلى الشرفة معاً، ألاحظ أن الناس تجمّعوا في مداخل المباني، أسأل نادية لماذا فتجيب أن المعركة تمددت كثيراً في عدّة أحياء من المدينة ومن بينها حيّنا، وعلى بعد أمتارٍ من البناية أرى المسلحين يتجوّلون بأعداد لا بأس بها...

أسمع صوت أبي أحمد ذي الدشداشة المقلّمة والكرش الضخم يقول بصوتٍ جهوريّ: قنصٌ على الطرقات والرصاص ينهمر على أكثر من شارعٍ...

يرتجف قلبي خوفاً، إذاً أنا في قلب معركةٍ فعلية تدور في المدينة... ما الذي فعلته بنفسي؟ وماذا أفعل الآن وأنا محجوزة في شارعٍ ليس فيه أحدٌ من أقاربي أو أصحابي وسط نارٍ مستعرة!!؟

حسام.. أين أنت يا حسام... أحتاج أن تكون إلى جانبي الآن، أن تكون موجوداً فقط... مجرد وجودك في المنزل نفسه أو الشارع أو حتى المدينة كان سيشعرني بالطمأنينة، أفكر أن أفتح هاتفي وأخابره، ربما استطاع أن يبعث لي سائقاً يخرجني من هنا، أو ربما أتى هو بنفسه لينقذني... لا، لن يأتي بنفسه، هو مشغولٌ بتلك الأخرى، التي قدمتُه لها على طبقٍ من غباوة مصقولة بالإهمال.. غباوتي العاطفية ومراهقتي النفسية وكل العقد التي كنتُ أفهمها جيداً ولم أسعَ يوماً إلى حلّها، هي السبب، نعم، أنا السبب، أضعت من أحبني باستخفافٍ وعدم نضجٍ فظيعين... كنتُ أستمتع بالقصة المشوّقة، أستمتع بكوني بطلة قصةٍ غير تقليدية وغير مفهومة، وأستمتع باحتفاظي بهذه العلاقة المعقّدة وبحبّه لي رغم كل ما كان يحدث، والأهم كنتُ أستمتع باستمرار إمساكي بطرف الخيط الذي يحرّك علاقتي بحسام بشكل درامي ويظلّ هو يحبّني حبّ البدايات باعتباره لم يملكني،ربّما في داخلي كنتُ أريد حبّاً لا يصل إلى نقطة الإشباع فيتحول إلى مللٍ وروتين... بدأت علاقتنا بحب من جهته

جارفٍ رقراقٍ كنبعٍ دافىءٍ لكن شخصيتي المركّبة ونظرتي المعقّدة إلى المشاعر وتراكمات الخوف واليتم وعدم الشعور بالأمان أحكمت من حوله السدود، لم أعرف قيمة ما منحني الله ولم أحسن التصرف وها أنا الآن في هذا المبنى القديم محاطة بأناس لا أعرفهم ولا يشبهونني... أتحرق عطشاً إلى قطرةٍ من ذاك النبع الذي لوثته بيدي وما عاد صالحاً للشرب...

تنفجر قذيفةٌ يبدو أنها أطلقت من مكانٍ قريبٍ جداً... أجنُّ، أركض خلف نادية التي تحمل الصغير بين يديها وتركض على الدرج وهي تصرخ بهستيرية... أركض بلا وعي، يتزاحم السكان على الأدراج، الأولاد لا يزالون في ثياب المنزل الملطّخة بآثار الطعام والشراب، والأمهات بمناديلهن المربوطة بشكل عشوائي فوق الرأس وبثيابهنّ المنزليّة، والآباء يحملون أطفالهم الصغار وكروشهم تتراقص أمامهم خلف الفانيلات البيضاء...

- إلى أين نحن ذاهبون؟

- إلى مدخل البناية.

- المدخل أو الملجأ تقصدين؟

- أي ملجأ... لا يوجد ملجأ..

- أذكر أنه كان هناك ملجأ تحت البناية كنّا نختبىء فيه هرباً من غارات الطائرات الإسرائيلية في الماضي...

- حبيبتي الملجأ تطوف فيه المجارير وتسرح فيه الجرذان وتمرح! يعني إذا لم نمت من الرصاص فسنموت هنا بعضّة جرذٍ جائع أو بوباءٍ قاتل...

يا إلهي، ماذا يحدث حولي، أنا في حقيقة أم في كابوس؟! عقلي توقّف عن التفكير والتحليل كأنه حَرِدَ من غباوتي وانزوى جانباً مضرباً عن العمل من أجل إنسانةٍ متهوّرة لا تستشيره عند اللزوم... وقلبي يلطم خدّيه ندماً على ما قادني إليه بطيش وأنا مشلولة لا أفهم ولا أُحسن التصرف...

ما الذي أتى بي إلى هنا؟ وما هنا؟ أين هنا؟ ومن أنا لأكون هنا؟ بل في الأساس من أنا؟ أنا ببساطةٍ امراةٌ غبيةٌ مدللةٌ كفرت بالأمان الذي لا تستحقه، بالشبع الذي أتخمها بعد جوعٍ للاستقرار... أنا إنسانةٌ كانت تشعر بالملل فبدلاً من أن تقتله قتلها...

أحبك حسام، أحتاج أن أقول لك هذه الكلمة الآن، أحب كل شيءٍ فيك وكل شيءٍ ليس فيك، كل ما منحتني وكل ما لم تمنحني إيّاه... أحب ما لم أعشه معك وأحلم أن أعيشه، أحب علاقتنا التي لم تكتمل وأحلم باكتمالها، أحب سماءك وحماك وكنفك وصبرك

ونضجك ووعيك وكرمك وأحب أيضاً بـرودك وشخصيتك المبرمجة المنظّمة المملّة... أحب ثيابك المكويّة المستفزّة وشعرك المصفف بإتقانٍ يرهق أعصابي... كيف تحملتني كل هذه السنين؟ كيف تحملت أن أكون ولا أكون، أن نكون معاً ولا نكون معاًّ!؟

أتكون قرأت كل أفكاري وتحملت؟ أتكون شممت رائحة الأحلام التي كانت تطبخ وتؤكل وتهضم في قلبي وأنا معك، حتى في المرة الوحيدة التي لمست رحيقي فيها،كان رحيقي سمّاً لك!؟

هل كنت تعرف وتحملت كل هذا الخذلان؟ أين كان عقلي؟!

يـزداد انهمار القذائف والرصاص، لطالما كان صوت الرصاص بالنسبة إلي هو صوت زغردة الشياطين تحتفل بموت أبرياء مظلومين؛ يعلو صوت الأطفال والأمهات بالبكاء والنواح، الجدات يتلين آيات قرآنية وأدعية عسى الله أن يكف البلاء عن عائلاتهن... أما الرجال، فماذا بوسعهم أن يفعلوا وعجزهم عن حماية أولادهم يقتلهم، منهم من يجري مكالمات هاتفية للاطمئنان إلى الأقارب ومنهم من يحاول الاستفسار عن مدى تمدد رقعة الاشتباكات في الخارج وعن احتمالات طول المعركة...

يأتي أحدهم براديو نقال له بطاريّات، أشعر بارتياحٍ غريب

لرؤية هذه العلبة السوداء الصغيرة، كأنها أتت في الحال من طفولتي حاملةً معها ما لذّ وطاب من الذكريات الموضّبة بترتيب على رفوف خزانة أضعت مفتاحها ذات فوضى وجدانية غير مقصودة، يتراءى لي شبحٌ بعيدٌ يلبس دشداشةً مقلّمةً تفوح منها رائحة مسحوق غسيلٍ منعش، يرتدي ابتسامته الوديعة ويحمل بيده راديو صغيراً تصدر منه نشرات الأخبار الشهيرة أيام الحرب، التي كانت تبدأ بـ«أسعدتم مساءً» رغم تعاسة مساءات القصف وتنتهي بـ«دمتم سالمين» رغم صعوبة دوام السلامة في تلك الليالي المجنونة..

ذلك الراديو الذي كان المنافس الوحيد لصداقة أبي الحميمة مع جريدته، كان يحضر إلى عالمه كثيراً من الأصدقاء الذين يملأون حياته مع أنه لم يرهم يوماً... من فيروز إسوارة العروس وأشعار طلال حيدر وكلام عاصي الرحباني الذي كان يعتبره من عجائب الدنيا بعمقه الغريب وفلسفته الرائعة في الحياة... إلى أم كلثوم «الأطلال» «وأنت عمري» وذكريات أول حبٍّ وآخر حبٍّ وما بينهما... والأهم من كل ذلك، نشرات الأخبار المتتابعة التي تعلن عن «الطرقات المقطوعة»، و«وأسماء القتلى والجرحى»، و«مكان وقوع الانفجار الأخير»، و«الشوارع التي يشتد عليها القنص في هذه الأثناء» وصوت صديقه المفضل الوهميّ الذي لم

يلتقه يوماً «حكمت وهبي»... وكذلك قرآن الفجر وأدعية ما قبل وقت الإفطار أيام رمضان، وإذاعة الشرق من باريس التي لطالما حلمنا «بزيارتها معاً» ولاحقاً وأخيراً، الخبر الذي لم يسمعه: اسمه شهيداً في الانفجار الذي سقط هو واثنان من أصدقائه فيه، فترافقوا إلى الموت كما كانوا يترافقون في «شمشطة» المواصلات وصعوبة الدوريات وفي لقمة الزوّادة اليومية وكل مشاكل الحياة...

يرنّ هاتف أحدهم الخلويّ فأسمعه يجيب وينادي نادية أن تأخذ منه المحمول لتتكلم مع ابن أختها الذي يخابر للاطمئنان إلى ابنه.. يكاد قلبي يتوقف وأنا أسمعها تصرخ: وينك يا هشام؟؟ تعال أخرجنا من هنا، محمود خائف جداً، وأنا أيضاً.. أرجوك تعال..

تكرّ دموعي على خدّيّ بغزارة وأنا أكتم صرخةً موجوعةً: أجل. تعال يا هشام.. تعال وأخرجنا من هنا..

لكنّ شيئاً ما يحدث يجعل دموعي تجفّ فوراً، ليس دموعي فقط بل دمي أيضاً أشعر وكأنّه نشف فجأةً في عروقي.. وكأنّ دورتي الدموية توقفت وصرت على شفير السقوط في هاوية سحيقة. أسمع نادية تنتحب وتقول:

- «أنت معهم؟ من تعني بـ«هم» يا هشام؟ أخبرني ماذا يحدث!! ماذا تعني بأن أهدأ وأن كل شيء تحت السيطرة؟؟!عم

تحدّثني الآن وأنا أرى الموت يسحبني ومحمود من أقدامنا التي أصقعها الرعب ونحن نحاول أن نتمسك بسقفٍ تنهار أعمدته فوق رؤوسنا..».

أنا أيضاً يا نادية، أنا أيضاً أشعر بأن السماء تنهار فوق رأسي ولا أكاد أصدّق.. ما هذا الوهم الفظيع الذي جعلني أستسهل رميَ حياتي في الخراب، بل ما هذه الدوامة من الأوهام الغبيّة التي شنقت نفسي على أعمدتها المتفسّخة طوال عمري.. وهشام، لماذا يا هشام؟ حتى أنت أيها الجميل، الرومنسيّ الحنون الذي يؤمن بقوّة الحب وسحر الشّعر وسلطة الموسيقى على أرواحنا الرقيقة؟ كيف استبدلت كتب محمود درويش وقلمك الذي يسيل حبّاً بسلاح يقاتل ويقتل؟؟

كيف تفعل بي هذا يا هشام؟؟

أذكر أني ذات مراهَقَةٍ بعيدة، حين كنت لاأزال أغرّد على غصني السابع عشر، وبعد افتراقنا بقليل، أوصدت باب العزلة على نفسي، وجلست في غرفتي السّرّية جدّاً التي لا يعرف ألوان جدرانها حتّى أنت، ورسمتُ بيتاً بقرميدٍ أخضر وشبابيك مقفلة، وبعد أن قبّلتك قبلة الوداع الكاوية الدّمع،حبستك بحنان داخل بيتي.

حينذاك، لوّنت الشبابيك بالأسود الأعمى، وأوصدتها جيداً، لتبقى مسجوناً داخل ذلك المنزل إلى الأبد.

وبعدما طويت الورقة وخبأتها في الدُرجِ الأبعد من ذاكرة روحي، اطمأننت لأننا معاً، وداخل هذا السرّ، لن نكبر أبداً...

كيف استطعت أن تفتح الشبابيك وتهرب يا هشام؟ كيف تجرأت أن تهرب؟ أأغرتك الشجرة المرسومة إلى جانب البيت بتسلق أغصانها، أم نادتك الشمس الباسمة في أعلى الصفحة لتقفز وتشدّها من شعرها المنكوش؟ لماذا لم تبق داخل المنزل الدافىء وتبقني معك إلى الأبد، ومن سيشغل ذلك الدُّرجَ السحريّ بعد الآن...؟

من سيسلّي الطفلة التي اختبأت خلف الشجرة نفسها كي لا تكبر أبداً؟ كأنك بتمزيق الورقة الملوّنة ذات البيت والشمس المنكوشة الشعر والشجرة والطفلة المختبئة خلفها قد مزّقت ورقة وجودي في الحياة، ومزّقت هويتي الأصليّة، فلم يعد لي لا انتماء ولا أصلٌ ولا مسقط روحٍ أطير إليها كلّما جرّحتني مخالب الزمن...

أصوات القذائف تتعالى بشكل تصاعدي، تدقّ بعنفٍ أعصابي وجِلد حواسي لتذكيري بأني الآن لست تلك الطفلة التي يحقّ لها

أن تهرع إلى حضن أبيها لتحتمي به من صوت القصف، بل أنا مجرّد عجوز حمقاء استعجلت نهايتها التي يبدو أنها ستكون وخيمةً...

الأخبار العاجلة تتوالى من الراديو بأصواتٍ غاضبةٍ تختلف رائحة الغضب فيها عن تلك التي في أصوات مذيعي الأخبار لحروب الزمن الماضي... فالحرب الآن تختلف عن حرب زمانٍ، إن بأشخاصها وإن بأسبابها أو أهدافها...

عدد الشهداء يرتفع، وأسماؤهم تنهال كحبّات البَرَد المؤلم على زجاج مشاعري، حدّة الاشتباكات تزداد وأيضاً تزداد حدّة الاشتباكات اللفظية في مدخل المبنى المكتظ وتصل إلى درجةٍ خطرةٍ من الاستفزاز: اتهامات متبادلة، كلام طائفي بغيض لم أذكر أنني سمعتُ ما يشبهه من قبل، أنا ابنة الأبوين من مذهبين مختلفين ورغم تداخل الطوائف لم يعلّمني أحدٌ يوماً أن الطائفة يمكن أن تكون سبباً لإشكالٍ أو معركةٍ من أي نوعٍ كان!

فجأةً يقعُ كرسيٌّ صغيرٌ على الأرض قربي بعد أن يرتطم بحائط الدرج، أجفل وأبتعد مرعوبةً لأجد أنّ الاشتباك الكلامي تعدّاه إلى مرحلة الاشتباك الجسدي! يرتفع عويل النساء وبكاء الأطفال الخائفين بينما يصرخ بعض رجالٍ يحاولون إبعاد الأحمقين المتعاركين أحدهما عن الآخر...

لا شيء يفلح في إيقاف الشجار غير دويّ قذيفةٍ لشدّة قربها خيّل إلي أنها انفجرت فوق رأسي مباشرةً.. أنهار بكاءً، ليس خوفاً، بل ألماً من طعنات عشرات الأسئلة التي تشكّني بحِراب علامات استفهامها وهي تنطُّ بين قلبي وعقلي بلا وعيٍ ولا اتزانٍ ولا أملٍ بأجوبةٍ محتملة...

تعاتبني مئات الوجوه الحبيبة وهي تصطفّ حولي متشابكة الأيدي وتحيطني بدائرة من نار الاتهامات... يخيفني وجهي وهو يحدّق إلي في كل مكانٍ حولي، ليس وجهاً واحداً فقط بل وجوهي الكثيرة! وجه الطفولة الحالمة، ووجه المراهقة اليتيمة الثائرة... وجه الصبية الباحثة عن مكان لها تحت الشمس، ووجه العروس المحظوظة بالمكان الذي حجزه لها الحب وسط حديقة أحلامها... وجه الزوجة الغبيّة، الغبيّة الغبيّة جداً! يفاجئني وجه الأم التي لم أكنها يوماً، يفاجئني مشوهاً ناقصاً وبشعاً.. يقترب مني، يقترب كثيراً ويفتح فيّ عينين جاحظتين فارغتين، كبحيرتين جفّ ماؤهما، يقترب كأنه يقول كم أنتِ قبيحة، كم أنتِ غبيّة وكم أنتِ فعلاً شقيّة...

تبتعد الوجوه تدريجاً لتشكل دائـرةً حولي تدور وتدور وتدور... تتشابك أيديها وتبدأ بدندنة أغنيةٍ كنت أغنيها مع رفيقات

الطفولة... تغني بصوتٍ يشبه صوت الأشباح كما كنت أتخيلها في كوابيس طفولتي:

«- يا سلــوى ليش عم تبكي عــم إبكــي بدّي رفيقــة...»

أسمع الضجيج في كياني يردّد الصّدى وأرى كل الموجودين حولي تتحرك شفاههم بالأغنية نفسها: «قومي نقّي شي رفيقة».

ولكن أيّ رفيقةٍ سأنقّي؟ أي رفيقةٍ سأختار؟ لم يبقَ لي أحدٌ، كلّهنّ كرهنني وكلّهنّ خنتهنّ... خنت الطفلة وخنت المراهقة، وخنت الصبيّة الطموحة.. وأكثر من خنت، خنت الزوجة وخنت الأمّ، خنت نفسي بكل أحوالها ومن يخن نفسه تخنه الحياة كلّها... والمصيبة أنني لا أعرف كيف ولا لماذا... كنت دائماً وفي كل حياتي وحيدةً، وحيدة بلا إخوة، وحيدة بلا أب، ثم وحيدة بلا أم... وجعلتُ نفسي وحيدةً بلا شريكٍ رغم وجوده... كنتُ دائماً وحيدةً ككلمةٍ نسيت بين سطرين، كحافيةٍ على أرضٍ رخوةٍ شديدة الحرارة... وحين أتى حسام من كتابٍ آخر، ومدّ لروحي جسراً نحو صفحة جديدة جاعلاً منّي عنواناً لقصته، مللتُ مكاني الأنيق على الغلاف وتأففتُ من موقع الصدارة الجامد بلا حراك... ضجرتُ ربما من وحدة التميّز وغرتُ من الكلمات التي كانت تنام كل يومٍ على أكتاف بعضها في سطورٍ من الحبر الدافىء... لم تكن المشكلة

إذاً في فصامي العاطفي، ولا في عقد اليتم المتأصلة في نفسي، لم تكن المشكلة في حاجتي إلى حضن أبٍ قبل حضن زوج، كانت تلك البداية فقط، وكان من المنطق مع كل وعيي وفهمي الكامل لنفسي وطبيعتي أن أتخطاها بسرعة، أو ربما ببطءٍ، ولكن ليس أن أتركها تدمّرني... الحقيقة أنني كنتُ أستطيع فعلاً أن أتخطاها ولكني إنسانةٌ طمّاعةٌ أرادت الاحتفاظ بكل شيءٍ لأنها لم تعرف يوماً ما تحتاج إليه أو ما تريده فعلاً!

من هو هشام؟ أنا لا أعرفه! ليس إلّا مجرّد احتمال، مجرد كلمة قديمة عُتّق حبرها في صفحةٍ كانت في مرحلةٍ من حياتي غاليةً على قلبي، دوّخني عطرُ حنينٍ فاح منها، ليس حنيناً إليها بل إلى الصفحة التي احتوتها... إلى الأنا التي كنتها حين كتبتها دقات قلبي... ليس سوى كلمة أغرت وحدتي بكتفٍ نادت أنوثتي ذات مراهقةٍ بعيدة... هشام، هذا الرجل الملتحي ذو النظرة الجامدة المميتة في إطار خشبي..أهو نفسه ذاك المراهق الذي حرّك شعوراً بكراً داخل من كنتها ولم أكن حينذاك أريدها!؟ أنا القديمة التي قضت عمرها تحلم بأنها أنا التي صرتُها الآن؟! وحين صرتُها رفضتُها! وهرعتُ أبحث عن القديمة بين أنقاض ما كنتُ، وما كان...

وزوجي، ذلك المسكين الذي استعملته لتحقيق ما كنتُ

أظنها أحلامي، أحبني على طريقته هو وليس على طريقتي، وإن كنتُ الآن لا أعرف فعلاً ما هي طريقتي في الحب بل ما هو الحب الذي أريد....

بين حياتين، كنتُ دوماً مشردة، أنا التي لم تقتنع يوماً بأنها كبرت، وظلت تحلم بأحلامها حتى بعد أن تحققت، لأنها كرهتها بعد أن أصبحت حقيقةً وصار لزاماً عليها أن تجد أحلاماً أخرى!!

مريضة أنا، هذا مؤكد! أردتُ كل شيءٍ ولم أرد شيئاً، أردتُ حيواتٍ عديدة في حياة واحدة وأحداث حياتي منذ بدايتها تثبت ذلك تماماً...

كنتُ طفلةً لا تعرف ماذا تجيب حين يسألونها: ماذا ستعملين حين تكبرين؟ وكيف تعرف ماذا تقول وهي تريد أن تكون طبيبةً ومعلمةً وكاتبةً وراقصةً وراهبة؟ حتى فارس أحلامي لم تكن له ملامح محددة يوماً، فتارةً كنتُ أريده شاباً وسيماً ذا وشومٍ كثيرةٍ على كتفين مفتولتين نتنزه حفاةً على شاطىء البحر نأكل الفول المشويّ، وطوراً أحلم به مثقفاً ذا مركزٍ مرموقٍ ببذلة رسمية يصطحبني بسيارةٍ فارهةٍ إلى عشاءٍ رومنسيٍّ في أرقى المطاعم وأنعم معه بحياة الرفاهية... وأنا.. من كنتُ أريدني؟ لم أعرف يوماً... كنت أريدني ربّة المنزل التي تقضي وقتها في الطبخ لحبيبها

ورعاية أطفالٍ كثيرين تنجبهم وتستمتع بجلسات التبصير والكلام التافه المسلّي حول فنجان قهوةٍ صباحيّة مع جارةٍ حميمة... أم كنت أريدني سيدة مجتمعٍ وأعمالٍ راقية ومرفّهة؟ من أنا ومن كنت ومن أصبحت؟ من أحبّ ومن لا أحبّ؟ ومن هو هذا الرجل الذي بذلتُ كلّ هذا الجهد كي أجده وأعيش معه مغامرةً غير مفهومة الماهيّة والطبيعة ولا الأسباب أو الأهداف، ومن ذاك الرجل الآخر الذي اجتزتُ كلّ هذه الأعمار خصوصاً كي أخونه؟ أنا لا أعرفهما، كلاهما لا أعرفهما حقاً ولا أعرفني أنا أيضاً!

روحي، تلك المعذبة بقدرها أن تستوطن جسدي، هذا الثوب الذي سحلها خلفه حافيةً على طرقات عمرٍ كانت تارةً صفيحاً ساخناً وطوراً أشواكاً دامية وأكثر الأحيان جليداً موجعاً.... روحي المسكينة منذ انبعاثها تبحث عن حبٍّ آمنٍ تنتعله لتسير بسلامٍ فوق طريقها المجهول..

وها أنا، بعد كل هذا، طفلةٌ لم تعرف كيف تكبر... بل ليتني كذلك، أنا كيانٌ غير محدد العمر والهويّة، لم أكن يوماً طفلة، فقد أفقدتني الحياة طفولتي باكراً، ولم أستطع أن أكون يوماً كبيرةً إذ رفضتُ أن أُثكلَ مرةً أخرى بأن أكبر.

أنا كيانٌ ينتظر أن يستعيد طفولته ليكبر على مهلٍ، ليكبر كما

يجب، ليصطحب معه ذكرياتٍ جميلة يدعوها إلى أعياد ميلاده فتصفق إلى جانبه لشمعةٍ تزغرد شعلتها فرحاً بسنين مقبلةٍ...

ولكنني فشلت، وبقيت كما دائماً، كائناً لم يستعد قط طفولته ولم يعرف يوماً كيف يكبر، وسأبقى هكذا، معلقةً بين حياتين، بل بين موتين: موت ولد معي حين أعلنتني الحياة، وموت أنتظره أو ربما ينتظرني... لعلّي الآن أطمع في تلك الحياة التي يعدون بها بعد الموت، تلك الحياة الشفافة، التي أتخيلها شفافةً بكلّ ما فيها، جدرانُ بيوتها من ماءٍ صافٍ وسماؤها أقاحٍ زرقاء وأشخاصها من بخارٍ نورانيّ الألوان... أو لعلّي أتوق لأعطي روحي فرصةً أخرى، أن تنبعث في جسدٍ آخر يليق أكثر بجمالها وصفائها، في مكانٍ آخر يشبهها، وفي حياةٍ لا يهمّ أن تكون أجمل، ما يهمّ أن تكون محدّدة الشكل واضحة المعالم والبداية والنهاية وكل ما بينهما...

أنظر حولي، أصوات القذائف تنفجر فوق المبنى حيث نختبىء جميعاً في المدخل الضيّق والدرج الذي يشبه أسنان عجوز سقط نصفها وأكل السوس نصفها المتبقّي،، صراخٌ وعويلٌ في كل زاويةٍ ورائحة العرق البشريّ تخنق الحواس والأحاسيس... كلّا، لا يشبه هذا المساء مساءاتنا الماضية في الملجأ... لا حلقات للعب الورق ولا فوانيس زيتٍ مضاءةٍ في الزوايا... لا أرغفة خبزٍ ملفوفة في أيدي

أطفالٍ ممشطي الشعر ولا بدايات قصص حبّ بين مراهقين... لا أحاديث جانبيّة بين النساء ولا تحليلات سياسيّة هادئة لما يجري في الخارج... لا جدّات يدعين بالموت على العدو الأبديّ إسرائيل ويصلّين لانتهاء الغارات... ألمح بين الزحام الذي بدأ يصبح ضباباً نادية المسكينة المتعطشة إلى حبٍّ لم تذقه يوماً، تحاول الجلوس في مكانٍ ضيّقٍ على الدرج بين شابّين مدّعية الخوف على الصغير محمود، لتحتّك ما استطاعت بهما، هي المحرومة طوال عمرها من لمسة حبّ... أشفق عليها بشدّة، وأشفق على جميع الموجودين... أشفق على زوجي الذي رمته الأقدار بامرأةٍ مجنونةٍ مثلي وأتعجب من اختفاء أيّ بوادر حقدٍ تجاهه بعد خيانته أو ما أسميتها أنا تجنّياً: «خيانة».. أشفق على نفسي... وأقرّر في تلك اللحظة أن أحترم نفسي: سأخرج من هنا الآن، لا يهم ما في الخارج من فوضى أو خطر، فالانفجارات المتتالية في داخلي هشمت كلّ ما كان متبقّياً، وكلّ ما ينهار حولي ليس أخطر من انهيارات نفسي المتصدّعة منذ زمن..

أبتسم للجميع، لنادية التي تولول وهي تحاول أن تمنعني من الخروج، لمحمود ذي العينين العميقتين الآتيتين كنسمة حبٍّ من فجر مراهقةٍ غابرة... لدموع الأطفال ورعب أمهاتهم... للرّجل

العصبيّ ذي الكرش الضخم، أبتسم حتّى للشابّ الوقح الذي لم ينفكّ عن تسليط نظرات رغبةٍ مزعجة نحوي طوال الوقت..وأخطو نحو البوابة التي تآكلت من الصدأ والعفن.

أفتح الأبواب جميعاً على مصاريعها وأخرج إلى الهواء.. أنظر نحو السماء... إنه أوّل المساء وأنا أحبّ البدايات في كل شيء... أبتسم أيضاً وأيضاً... لغيمةٍ أمٍ تركض خلف صغارها لتدخلها عنوةً في أسرّتها الدخانيّة فقد حان وقتُ حكاية ما قبل النوم... لجاريات الليل المغويات يتعطّرن لاستقبال المارد الأسود الجبّار فتهرهر جلابيبهنّ المطرّزة أولى النجوم في السماء، رنين خلاخيلهنّ في هذا المساء الأسمر الوسيم يقطعه صوتٌ فظيعٌ، صوت قريبٌ جداً يشطر السماء نصفين مغتالاً الأمّ وصغارها والجاريات وجلابيبهنّ المعطّرة والنجوم التي تهرهر منها.

ثمّ يختفي كل شيء...

يختفي كلّ شيءٍ تماماً!

لا مزيد من أصوات القذائف...

ها أنا أمشي على أوراق ملساء تتكسر ضحكاتها تحت قدميّ، أعرف من أسنان الحليب التي تلمع في ابتساماتها أنها لاتزال طفلة.

رائحة المساء تزداد دفئاً وعطراً أخاذاً.

أسمع صرير باب خشبي يفتح بسرعة ويغلق، وصوت جدي يقول: «إنها تمطر بَرَداً.. الله يبعث الخير... برّة الدنيا طايفة والبرد يقص المسمار!!»، ويندس قربي على الطراحة المواجهة للصوبيا التي يتكتك فوقها إبريق الشاي ذو الطبقتين.. كيف أسمعه ولا أراه؟؟ «اشووا هذه العصافير يا امرأة، بنت ابنك أتت من البعيد لتأكل عصافير مشوية... وَلَو يا حجة!»، لا أشمّ رائحة شواء عصافير تفوح من أي مكان، لا شيء غير رائحة الصابون البلدي تفوح من الفرش المستوفة بعضها فوق بعض عن يساري، مغطاة بلحاف من ضباب أزرق شفاف.. رائحة التبغ العربي الذي كان جدي يلفّه في سجائر مصنوعة يدوياً تختلط برائحة نارجيلة جدي لأمي، نارجيلة التنباك العجمي الأصلي، ما الذي أتى بجدي الآخر إلى ضيعتنا البعيدة هو ونارجيلته وتبغه، وكيف استطاع الوصول في هذا الطقس العاصف البارد؟!

وهذا صوت جدتي أيضاً! تناديني أناولها بخاخ الفانتولين وتصرخ أن رائحة التبغ والتنباك قد خنقتها وجدي ينهرها بلهجته الصيداوية التقليدية التي تستبدل «الطاء» «بالتاء» ويطلب منها التوجه إلى المطبخ لإعداد الطعام..

ما كل هذه الغيوم من حولي؟ غيوم تشبه تلك التي كنت

أتأملها في أيام الصيف وأنا متمددة على سطح بنايتنا، غيمة كحصان أبيض، وأخرى كتمساح لطيف، وواحدة كغزل البنات الذي يبيعه ذلك العجوز على باب مدرستي.. من أين أتت كل هذه الغيوم؟ أهي عبقة الدخان المتصاعد من سيجارة ونارجيلة جدّيَّ؟ لكن روائحها باردة ومنعشة، تنساب باردة «نقية» كينبوع يسيل ماؤه فوق أنفي وكل وجهي.

يقفز أمامي صبي صغير، صغير جداً، يكاد حجمه لا يصل إلى حجم إصبعي، يمسك يدي، يقبل باطن كفي، أسأله من هو فيجيبني بصوت يشبه نقيق الضفادع في الليالي الصيفية المقمرة: أنا ابنك، ابنك الذي لم يكتمل، أتذكرينني؟ عندما حملت بي وكنت أتراقص داخل بطنك كسمكة مسطحة وكنت تظنينني فقاقيع غازية، لم تشعري بي يوماً مع أني كنت أحاول دائماً أن أدغدغك، أن أخبرك أنني موجود لكنك لم تشعري بي ورفضني جسمك بعد أقل من شهرين من اختبائي في رحمك مقاوماً كل العوامل البيولوجية وجنون هورموناتك الغاضبة دائما... وحين استسلمت أخيراً لضعفي ووحدتي وسبحت بخنوع مع شلال الدم الذي جرفني خارج الحياة، رأيتك حزينة يائسة باكية فقررت ألا أرحل إلى أي مكان، وأنتظرك دائماً لترافقيني... رجتني روحك أن أنتظرها

لنترافق في رحلتنا الأخيرة وها أنا قد فعلت، فهاتي جناحك لنترافق معاً...

يغمرني الفرح بكلام هذا الصبي، فرح دافئ حلو الطعم، يلفّني كموجة من الشوكولاتة الدافئة الشقراء... أحاول أن أجد جدي وجدتي، فلا أراهما، لكن أسمع أصواتهما فقط تنبعث من خلف ستارة ضبابية: دست، بنج، غلبتك مارس! إذاً هما منشغلان بلعب البرجيس (لعبة تركية مشهورة في لبنان) هما منشغلان جداً وبعيدان جداً لكنني لا أشعر بالخوف، إذ إن صوتاً حبيباً آخر يتهادى في آخر الرّواق الهادئ «تعي تعي تعي.... يلا.... برافو.... دادا شطة بطة... دادا ذقن القطة» إنه صوت أبي، أعرفه جيداً ولاأزال أذكره، هو يشجعني على المشي كما كان يفعل ربما في السنة الأولى من عمري، لكنني لا أستطيع، رجلاي ثقيلتان جداً كأن جبلين قد ربطا بهما... لكنه لا ييأس، ولا أنا أيأس، أحاول أن أقف وأنجح، أمشي خطوة واحدة فأسمع تصفيقه من بعيد كما لو كان آتياً من قعر سحيق.. أتمنى لو أراه، فقد ذبت شوقاً إليه لكنه لا يظهر... صوته فقط يملأ الأعماق التي أغرق فيها تدريجاً.. الصبي الصغير يشد على يدي ويحضنها بقوة، هكذا إذاً يتشبث الأطفال بأيدي الأمهات! أغرق في الشوكولاتة الدافئة أكثر فأكثر، حتى أصل إلى

أعمق نقطة من بحر الدفء العارم، حيث تشرق في وجهي نجمتان ساحرتان... عينا أمي وقد انتفختا قليلاً من البكاء، حمراوان قليلاً كما كانتا دائماً منذ موت أبي من كثرة البكاء المكتوم... أجرّ نفسي نحوها لأحضنها لكني لا أستطيع الحراك! تبتعد عيناها في دوامةٍ دخانية سريعة الدوران... يجتاحني الخوف وأنا أتساءل أين أنا.. أين الذين كانوا منذ قليل!! اختفى الجميع واختفى كل شيء، تبخرت عينا أمي وطار الصبي الصغير كفراشة من دخان... وأين اختفى صوت أبي ويداه اللتان تخيلتهما ممدودتين نحوي؟؟؟

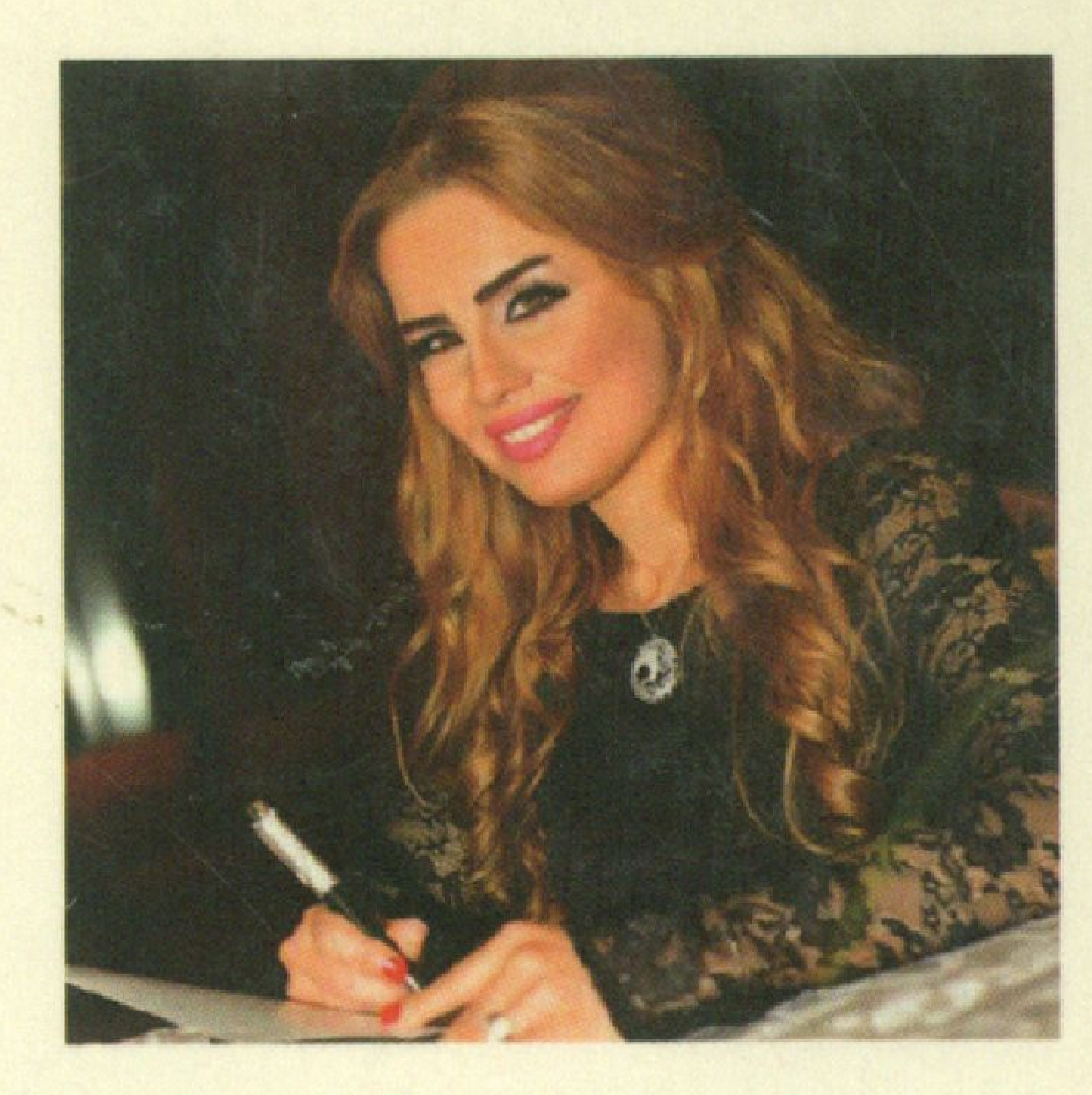
مهلاً، هل أنا أموت؟؟ هل أنا ميتة الآن؟؟؟ إن كان هذا هو الموت فأين حقيبتي التي تعبت في إعدادها منذ بداية العمر لهذا السفر المشتهى؟ والذكريات والصور؟ ودفتر مذكراتي الذي دأبت في أخباره كل ليلة كل أفكاري وأسراري؟ أريدها جميعاً، فأنا أريد أخبار أبي بكل تفاصيل حياتي من بعده، أن أريه ألبومات الصور، صور تخرجي وعرسي وزوجي وأصدقائي... وأمي؟، كيف لي أن أتذكر كل ما أردت مشاركتها فيه حين يجمعنا فنجان القهوة الصباحي في أول يوم من لقائنا...

ترى كيف يكون أول صباح بعد الموت وما هي أخبار صحفه؟

أيتها الملائكة كيف سأرحل من دون أشيائي؟ أين قبطان

الرحلة التي أقلعت دون إخباري؟ أريد حقيبتي فقط أرجوك... خبأت فيها أيضاً هدايا كثيرة، لكل من رحل قبلي ولم يترك لي سوى الغصّة... ولرانية خبأت لها قصاصةً من طرحة عرسي، هي التي سحقتها الدنيا وقتلتها قبل أن تذوق طعم الحب والأعراس. ولكل من أحببت، أريد أن أختار لهم أقمشة ثمينة تليق بنزهاتهم على العشب الأزرق المترامي على جسد السماء...

تزداد حرارة السائل الذي تلفني دوامته أكثر فأكثر فأبدأ بالذوبان، ها أنا نفسي أتحول إلى سائل عجيب في خفته، ربما تمهيداً لتحولي النهائي إلى دخان أبيض... أشعر أني أصبحت فراشة من ماء... خفيفة ذات جناحين غير مرئيين... أشعر بالدوار يحملني بنشوة فائقة فأترنّح بسعادةٍ غير مألوفة، سعادة تجعلني أخيراً أتبخر، وأصعد وأصعد، خفيفةً خفيفة، حتى أصبح غيمة بيضاء ذات وجه زهري باسم وضفيرة طويلة بشرائط ملونة، كما حلمت دائماً... كما حلمت دائماً...



...كيف استطعت أن تفتح الشبابيك وتهرب يا هشام؟ كيف تجرأت أن تهرب؟ أأغرتك الشجرة المرسومة إلى جانب البيت بتسلق أغصانها، أم نادتك الشمس الباسمة في أعلى الصفحة لتقفز وتشدّها من شعرها المنكوش؟ لماذا لم تبق داخل المنزل الدافىء وتبقني معك إلى الأبد، ومن سيشغل ذلك الدُّرجَ السحريّ بعد الآن...؟

من سيسلّي الطفلة التي اختبأت خلف الشجرة نفسها كي لا تكبر أبداً؟ كأنك بتمزيق الورقة الملوّنة ذات البيت والشمس المنكوشة الشعر والشجرة والطفلة المختبئة خلفها قد مزّقت ورقة وجودي في الحياة، ومزّقت هويتي الأصليّة، فلم يعد لي لا انتماء ولا أصلٌ ولا مسقط روحٍ أطير إليها كلّما جرّحتني مخالب الزمن...

مريم شمص، كاتبة ومحامية لبنانية.

صدر لها: ذات أرق (شعر)، الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠١٤.





ISBN 978-614-432-354-0
9 786144 323540